الفصل الثامن

تطور النثر وفنونه

١

تطور النثر

كان العصر العباسى الأول عصراً خطيراً حقاً فى تطور النثر العربى ، إذ تحولت إليه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وكل معارف الشعوب التى أظلتها الدولة العباسية ، بحيث تدخّل جميع ذلك فى تركيبه وائتلف مع نسيجه ، وتولد منه جديد تلْوَ جديد .

وتم هذا التحول — كما مرّ بنا فى الفصل الثالث — عن طريقين : طريق النقل والترجمة ، وهو طريق عُنى به الخلفاء العباسيون — ووزراؤهم وخاصة البرامكة — إلى أبعد حد ممكن ، كما عنى به أفراد مختلفون مثل ابن المقفع وآل نوبخت . وطريق ثان لعله كان أوسع مجرى ، هو تعرب شعوب الشرق الأوسط وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة . ولم ينتقلوا بمعارفهم فقط ، بل انتقلوا أيضًا بعاداتهم وتقاليدهم وطرائقهم فى المعيشة مما هيأ لتفاعل واسع بين العرب والشعوب المستعربة ، بل مما هيأ لظهور المدنية العربية فى تلك الأقاليم التى دانت بالإسلام ، وهى مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ومن الأدب العربى بشعره ونثره ومن صور الحياة العقلية والمادية فى المحيط العربى الجديد .

وعلى سُنَنٍ من طبائع الحياة أخذ النثر يتطور تطوراً واسعًا ، إذ حمل خلاصة هذه المدنية ومُلئت أوانيه بشرابها الجديد الذى اختلفت ألوانه باختلاف ينابيعه الكثيرة ، مما عرضنا له فى غير هذا الموضع . وقد أظهر النثر العربى مرونة واسعة إذ استطاع أن يحتوى كل هذه الينابيع وأن يتسع لها صدره ، بل لقد غدا كمجرى نهر كبير ترفده جداول من ثقافات متنوعة تنوعا لايكاد يُحَدُّ أو يحصى ،

وكل جدول يذوب فى النهر بمجرد دخوله فيه ، إذ يتحول عربيًّا ، ويتحول معه كل ما يحمل من سيول المعارف ، حتى الفلسفة والعلوم فإنهما لم يستعصيا على هذا التحول ، إذ سرعان ما صُبَّا فى قوالب عربية ملائمة .

وكان ذلك إيذانًا بتعدد شُعَب النثر العربى وفروعه ، فقد أصبح فيه النثر العلمى والنثر الفلسفى ، وأصبح فيه أيضًا النثر التاريخى ، على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة، وحتى النثر الأدبى الخالص أخذ يتأثر بملكات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع وترجمته عن هذه اللغة لقصص كليلة ودمنة الهندى الأصل ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ونُظُمهم فى السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر فى الرسائل الديوانية وفى نشوء الرسائل الأدبية التى تُعنَى بالكتابة فى موضوع محدود ، مما نسميه اليوم باسم المقالات ، إذ يعالج الكاتب موضوعًا فى طائفة من الصحف .

ولم يقف النثر العربى عند حمل المضامين العلمية والفلسفية الجديدة التى جاءته من لدن الأجانب ، فقد انبرت العبقرية العربية فى هذا العصر تضع العلوم اللغوية والشرعية ، وهو وضع كان واسع الأثر فى تمهيد اللغة وتيسيرها وجعلها لغة علمية محدَّدة الألفاظ والاصطلاحات التى ترسم المعانى رسما دقيقًا . وقد مضت هذه اللغة تركض ركضًا لا فى مجال العلوم الإسلامية والعربية الخالصة فحسب ، بل أيضًا فى مجال العلوم الطبيعية والكونية ، فإذا لنا علماء كيماويون ورياضيون مختلفون ، لهم مصنفاتهم ومباحثهم المبتكرة .

وعلى نحو ما أثمرت العقلية العربية فى المجال العلمى أثمرت فى المجال الفلسفى وخاصة فى بيئات المتكلمين ، إذ مدُّوا مباحثهم فى العقائد الإيمانية إلى كل شعب الفلسفة ، واستطاعوا — وخاصة المعتزلة منهم — بأنظارهم العقلية أن يُدلوا فى جميع هذه الشعب بآراء جديدة طريفة على نحو ما يفصِّل ذلك الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » حين يعرض لمذاهب المعتزلة المختلفة وما يقولونه فى الأجسام والأعراض والجواهر والحركة والسكون والكمون والتولد والطفرة والوجود والعدم والروح والنفس والعقل وإدراك الحواس والكم والكيف والألوان والخير والشر.

وكل ذلك كان له آثار بعيدة فى النثر العربى ، لا من حيث الألفاظ

والمصطلحات الجديدة فحسب ، بل أيضًا من حيث ذخائر الفكر الفلسفى اليونانى والعربى التى التقت فى أوعيته وأوانيه والتى جعلته يعرف صورا من تحليل الأفكار وتركيبها لا عهد له بها ، كما جعلته يعرف القياس المنطقى الصحيح وطرق الاستدلال والتعليل ودقائق المعانى وفرق ما بين السبب والمسبب وما بين الجنس والنوع والفصل والخاصة وما بين الحجة والشبهة والممكن والمحال والمعقول والموهوم والبرهان الجلىّ والبرهان الخفى ، مما جعل الفكر العربى يتحول إلى ما يشبه كنزاً سائلا بما لا يُحْصَى ولا يُسْتَقْصَى من الخواطر والمعانى .

ومن المؤكد أن التعبير عن كثير من هذه المعانى والخواطر لم يكن مألوفًا للعربية ، غير أنه قُيِّض لها من نابهى المتكلمين والكُتَّاب والمترجمين مَنْ مدَّ طاقتها وجعلها تسيغ تلك الخواطر والمعانى دون دخول أى ضَيْم عليها من شأنه أن يمحو طوابعها أو يجور على خصائصها ومقوماتها ، بل لقد أخذت تونق فى أثناء هذا التحول العقلى والحضارى وما صحبه من تراكيب وصيغ مستحدثة لا عهد لها بها سواء فى المجال العلمى والفلسفى أو فى المجال الأدبى الخالص .

ولم تقف المسألة عند احتفاظها بالقوالب العربية وأوضاعها اللغوية وتيسير هذه القوالب والأوضاع وتذليلها للمعانى العلمية والفلسفية العميقة وأدائها بخفيات حدودها ورَسْمها رسما محدداً دقيقًا ، بل امتدت إلى استحداث أسلوب مولد جديد ، أسلوب يحتفظ للغة بكل مقوماتها ، كما يحتفظ بالوضوح والتجافى عن الألفاظ الغامضة والمعانى المبهمة ، بل إنه ليحرص على الأداء البليغ ، بحيث يروق المتكلم والكاتب والمترجم والسامعَ بعذوبة منطقه ، بل بحيث يَلَذُّ الآذان حين تستمع إليه كما يلذ العقول والقلوب .

وهو أسلوب قام على هَجْر كثير من الألفاظ البدوية الحوشية الجافية التى تَنْبو على ذوق أهل الحاضرة كما قام على الارتفاع عن الألفاظ العامية المبتذلة ، مع العناية بفصاحة اللفظ وجزالته ورصانته والملاءمة الدقيقة بين الكلمة والكلمة فى الجرس الصوتى . وبذلك لم يقف عند الأداء الفصيح فحسب ، إذ اتخذ لنفسه أصولا بيانية تُشيع فيه الرونق والجمال ، مما جعل جهابذته يتساءلون طويلا عن البلاغة ، وهو سؤال يلقانا فى جميع البيئات وتلقانا معه أجوبة كثيرة .

والطريف أنهم لم يكتفوا فى ذلك بما قد يكشفونه ببصائرهم الحاذقة ، إذ مضوا يطلبون ما عند الأمم الأجنبية من وصايا فى البيان والبلاغة سواء الفرس أو اليونان أو الرومان[1] ، وحتى الهنود ، إذ نجد معمّراً صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة يتعرض لبهلة الطبيب الهندى فى عصر البرامكة يسأله عن رأى أمته فى البلاغة ، فيعطيه فى ذلك صحيفة مكتوبة بالسنسكريتية، ويقول له إنى لا أحسن ترجمتها لك ، لأنى لم أعالج صناعة البلاغة فأثق من نفسى بالقيام بأداء معانيها وخصائصها على الوجه الصحيح ، ويلتقى معمر بالصحيفة التراجمة الذين يحسنون النقل من السنسكريتية إلى العربية فينقلونها له ، وقد احتفظ بها الجاحظ فى البيان[2] والتبيين ، وهى تطلب إلى الخطيب أن يلائم بين كلامه ومستمعيه وأن يحرص على الوضوح ويتجافى عن الألفاظ الوعرة والأخرى الغامضة وأن لا ينقح ألفاظه كل التنقيح إلا لمن حاز قسطا من الحكمة والفلسفة ممن خبروا الكلام والمعانى ، وأن يحرص على استخدام الألفاظ المحددة البينة التى تفى بمعانيها وتؤديها أداء سليما دون زيادة أو نقص .

ومن المحقق أن المعتزلة والمتكلمين بعامة عنوا فى هذا العصر عناية واسعة بمعرفة الأصول التى تقوم عليها براعة القول ، إذ كانت صناعتهم تقوم على إحسان فن الكلام، أو بعبارة أخرى فن المناظرة فى المسائل الدينية والعقيدية وما يتصل بها من بعض المعانى الفلسفية . ونستطيع أن نجد مقدماتهم فى العصر الأموى وفى مساجد البصرة والكوفة حيث كان يجتمع ممثلو الأحزاب السياسية فيتحاورون فى مسائلهم وما يتفرع عنها من المسائل الدينية ويحاول هذا أو ذاك إقناع خصمه أو قهره والغلبة عليه بالحجة القاطعة والبيان الخلاب . وما نصل إلى العصر العباسى ، بل إلى أواخر العصر الأموى، حتى نجدهم يقيمون المناظرات ، ويجتمع الناس من حولهم ليروا من يظفر بخصمه ويقطعه عن الكلام قطعًا .

وطبيعى أن يدفع ذلك المتكلمين ومن حولهم إلى التساؤل عن البراعة فى القول والأسس التى تقوم عليها وأن ينثر المتكلمون الحاذقون فى ذلك بعض ملاحظات عن البيان والبلاغة، ومن هنا لا نعجب إذا وجدنا سائلا يتعرض لمعتزلى كبير فى

---

(١) البيان والتبيين ١/٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/٩٢ .

أوائل هذا العصر ، هو عمرو بن عُبَيْد ، فيسأله عن البلاغة وقُطْبها الذى تدور عليه ، ويجيبه بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام وتزيين المعانى بالألفاظ المستحسنة فى الآذان المقبولة عند الأذهان[1] » . ويدور السؤال طوال العصر وتتعدد إجابات المعتزلة عليه من مثل قول العَتَّابى لسائل سأله عن البليغ والبلاغة ، فقال له[2] :

« كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كل خطيب فإظهارُ ما غمض من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَنَاه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمعْ منى ، واستمعْ إلىّ ، وافهمْ عنى ، أو لست تفهم ؟ أو لست تعقل ؟ فهذا كله وما أشبهه عىٌّ وفساد »

وواضح أن العَتَابى يجعل البلاغة فى التدفق البيانى دون إعادة وتكرار ودون حَصَر وعىّ ، ودون استعانة بحشو يُؤْذى الذوق الحضرىَّ المهذب . وتلك هى البلاغة العادية ، أما البلاغة الرفيعة فهى التى ترفع الحجاب عن غوامض المعانى ، وهى التى تبلغ من الحذق ما تعرض به الباطل فى صورة الحق معتمدةً على خلابة اللسان وتزيين المعانى فى القلوب ، والاحتيال على ذلك والتلطف له حتى يُرَى كأنه الحق الذى لاحق وراءه . وهو يستوحى ذلك من قدرة المتكلمين حوله فى مناظرة خصومهم وإفحامهم بالحجج الصحيحة تارة ، وتارة بالحجج غير الصحيحة التى يستطيع البليغ التام الذى يتقن أبنية الأدلة والكلام أن يموهها على السامع حتى يظن أنها صحيحة صحة تامة . ولا نبالغ إذا قلنا إن صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة التى احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[3] هى أروع ما أُثر عن المعتزلة فى هذا العصر بصدد الأصول البلاغية العامة ، وهو يستهلها بأن الأديب سواء كان خطيباً أو كاتباً أو شاعراً ينبغى أن يلاحظ نفسه فلا يقدم على الكلام إلا إذا كان مستعداً متهيئا تمام التهيؤ ، فارغ البال ناشطا له تمام النشاط . وينصحه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١١٣ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ والصناعتين (طبعة الحلبى) ص ١٣٤ .

باختيار ألفاظه وتفصيلها على المعانى بحيث تكون بقدرها لا فاضلة عنها ولا مقصّرة، كما ينصحه بأن تخلو ألفاظه من كل غريب وكل تعقيد ، وأن تؤدى دلالتها أداء واضحا مهما كانت دقيقة عسيرة وأن تتلاءم معها بحيث تؤديها أداء تاما يحيط بدقائقها إن كانت من الدلالات الغامضة، وفى الوقت نفسه تُلْقَى عليها كل مايمكن من أضواء تكشفها من جميع أطرافها، مع تذليلها وتيسيرها وعرضها فى لغة متوسطة بين لغة العامة المبتذلة ولغة الأعراب الخشنة المملوءة بالغريب . وينصح من لا تواتيهم طبائعهم بالرصف الحسن للألفاظ ووضعها فى مواضعها الصحيحة دون نبو أو شذوذ أن يكفّوا أنفسهم عن صناعة البيان والكلام البليغ ، وأولى منهم بهذا الكف والهجران لتلك الصناعة من تقعد بهم طبائعهم مهما أجهدوا أنفسهم عن الإتيان بشىء من الكلام له روعة أو ما يشبه الروعة. ولا يكفى للبليغ أن يلائم بين كلامه ومعانيه أو بعبارة أخرى بين كلامه والموضوع الذى يتحدث عنه ، بل لا بد له من ضميمة ثانية هى إحسانه الملاءمة بين كلامه والمستمعين وأحوالهم النفسية والعقلية ، بحيث يجدون فى كلامه اللذة والمتاع ، ومن هنا يطلب إلى المتكلم إذا خاطب أوساط الناس أن لا يرتفع عن مداركهم بما يورد عليهم من اصطلاحات المتكلمين ، حتى لا تنقطع الصلة بينه وبينهم ، أما إذا خاطب المتكلمين فلا بأس من إيراده لهذه المصطلحات التى يفهمونها فهماً حسناً ، والتى قد يجدون فيها شيئاً من المتاع .

وملاحظات كثيرة أخرى كان يلاحظها المتكلمون معتزلة وغير معتزلة فى شئون البيان والبلاغة ، وهى متناثرة فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، ولا بد أن ملاحظات أخرى سقطت منه ولم يسجلها . ولم يكن المتكلمون وحدهم الذين يتعمقون فى معرفة أصول البيان والبلاغة ، فقد كان يَشْركهم فى ذلك كتّاب الدواوين والمترجمون، ومن خير مَنْ يمثلهم فى مطالع العصر ابن المقفع ، ويروى أنه سئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال[1] :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ؛ فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً

(١) البيان والتبيين ١/١١٥.

وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامةُ ما يكون من هذه الأبواب الوَحْىُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السَّماطين وفى إصلاح ذات البين فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال . وليكنْ فى صدر كلامك دليلٌ على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته . فقيل له : فإن ملَّ السامع الإطالة التى ذكرتَ أنها حقٌ ذلك ؟ قال : إذا أعطيتَ كل مقام حقه وقمتَ بالذى يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتمّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدوّ فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا تناله ، وقد كان يقال : رِضا الناس شىء لا ينال » .

وابن المقفع يذكر كل فنون الكلام ويطلب فيها الإيجاز والتركيز الدقيق ، ويلتفت إلى خطب المحافل والصلح ويطلب فيها الإطناب فى غير خطل ولا إملال . ويضع قاعدة مهمة أن يكون فى صدر الكلام ما يدل على غرضه ، وهو ما سماه البلاغيون ، فيما بعدُ ، باسم براعة الاستهلال ، كما يضع للشعر قاعدة ثانية هى أن يتلاءم صدر البيت مع قافيته حتى لكأنه يستدعيها استدعاء وهو ما سماه البلاغيون باسم رَدّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ملاحظة تامة أن لكل من الإيجاز والإطناب فى الكلام مقامه ، وأنه ينبغى دائما أن يستوفى الكلام حقوقه من النصاعة والبلاغة والبيان .

وقد تحولت الدواوين الكثيرة المعقدة التى عرضنا لها فى الفصل الأول إلى ما يشبه مدارس بيانية كبيرة ، إذ كان لا بد للشبان الذين يعملون فيها من إتقانهم لصياغة الكلام بحيث لا يدخله ضعف ولا ابتذال وبحيث لا يعلو على أفهام العامة الذين كانوا يوجِّهون إليهم منشورات دار الخلافة . وكان هؤلاء الشبان يقيمون أولا بأبواب الدواوين متعرضين لامتحان قاس ، فمن أظهر كفاءته فيما طُلبَ إليه من بعض الرسائل رُفع أمره إلى رؤساء الديوان ، فوظفوه ، وإن لم يُحْسن ما طلب إليه ردّوه . وجعلهم ذلك يتساءلون عن البلاغة ومتى يُصْبح الكلام بليغاً وما العيوب التى تعوق بلاغته ، ودارت هذه الأسئلة بين رؤساء الدواوين وبلغائها ، المفوّهين ، وكانوا يمثلون الذوق الحضارى المترف فى أدق صوره فدقّقوا فى كلامهم

إلى أبعد حد ممكن ، وعبَّروا فيه عن دقة مزاج ورهافة حس بالغة ، حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أرَ قطّ أمثل فى طريقة البلاغة من الكُتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعِّراً وحشيًّا ولا ساقطا سوقيًّا[1] » .

وكل ذلك معناه أن النثر تهيأت له أسباب كثيرة فى هذا العصر لكى ينمو ويزدهر ، فقد أخذ يمتدُّ ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى فى المجال الأدبى ، إذ أخذت تَغْذوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية كما أخذت تغذوه الثقافات الأجنبية وكل ما اتصل بها من الفكر اليونانى ، ومضى يتفاعل مع ذلك كله محتفظًا بمقوماته وطوابعه العربية الأصيلة ، بحيث لم يحدث أىُّ ازدواج فى اللغة يعرِّضها للضياع ، بل لقد أينعت الفروع الجديدة فى شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكوَّن فيها أزهار ذاكية الشَّذَى وثمار حلوة يانعة بفضل كبار الكتاب والمترجمين والمتكلمين الذين احتفظوا لها بأصولها وأوضاعها وأغنوها ونمّوْها حتى فى مجال الأساليب الخالصة ، إذ عرفوا كيف يستخلصون رحيقها البلاغى الذى يغذِّى العقول ويَشْفى القلوب والأفئدة .

٢

الخطب والوعظ والقَصَص

نشطت الخطابة السياسية فى مطالع هذا العصر ، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها فى بيان حق العباسيين فى الحكم ، وكانوا يحسُّون منذ أول الأمر بأن أبناء عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم ، فمضوا يؤكدون فى خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق ، فهم الذين أدالوا للشعب من بنى أمية وهم الذين قوَّضوا حكمهم وحطَموه حَطْما ، وقد انهالوا عليهم بالتجريح والطعن العنيف ، على نحو ما يتضح فى خطبة[2] أبى العباس السفاح حين بويع بالخلافة فى الكوفة ، وفيها نراه يتحدث عن رَحِمِهم وقرابتهم للرسول صلى الله عليه وسلم تاليًا من القرآن الحكيم بعض الآيات الخاصة بأهل بيت النبوة من مثل (إنما يريد

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٧ .

(٢) انظر الخطبة فى الطبرى ٦ / ٨١ وما بعدها .

اللهُ ليذهب عنكم الرِّجْسَ أهلَ البيت ويطهركم تطهيراً) وما يلبث أن يعرض للسبئية من الشيعة الغالية قائلا : « وزعمت السبئية الضُّلَّال أن غيرنا أحقُّ بالرياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ، بِمَ ولِمَ أيها الناس ، وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم وبصَّرهم بعد جهالتهم وأنقذهم بعد هلكتهم . . وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبِرّ » . ويتحدث عن الأمويين وظلمهم للرعية وكيف تداركها الله بهم وردَّ عليها حقوقها المسلوبة. وخطب عمه داود بن على بنفس اللحن ، ويشيد الجاحظ ببيانه وفصاحته قائلا إنه « كان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا واقتضابا للقول . وله كلام كثير معروف محفوظ » . ويروى من ذلك خطبته فى أهل مكة حين وليها لابن أخيه ، وهى تمضى على هذا النمط :

« شكرا شكرا . أما والله ما خرجنا لنَحْتفر فيكم نهراً ولا لنبنى قصراً، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نظفر به إذ أرْخِيَ له فى ذِمامه ،حتى عثر فى فَضْل خِطامه . فالآن عاد الأمر فى نِصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، والآن أخذ القوسَ باريها ، وعادت النَّبْلُ إلى النَّزَعة[٢] ، ورجع الحق إلى مستقره فى أهل بيت نبيكم : أهل بيت الرأفة والرحمة ».

ويموت السفاح سريعاً ، ويخلفه أبو جعفر المنصور ، ولم يكن فى العباسيين أبينُ منه ولا أخطب ، وفى عهده تندلع ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية بالمدينة ، لسنة ١٤٥ للهجرة ،ويتكاتبان كما مر بنا فى الفصل الأول، وكل منهما يؤكد حقه فى الخلافة وإرثها عن الرسول الكريم . ويشهر كل منهما السلاح فى وجه صاحبه ، كما يشهران الخطب ويرسلان سهام القول ، وكان محمد بن عبد الله لا يقل عنه لسناً وفصاحة ، ومن قوله فى بعض خطبه[٣] :

« إن أحق الناس بالقيام فى هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين . اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرَّموا حلالك وعملوا بغير كتابك وغيَّروا عهد نبيك صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أخفتَ وأخافوا من آمنت ، فأحْصِهم عدداً ، واقتلهم بَدَداً[٤] ، ولا تُبْقِ على الأرض منهم أحداً » .

ولم يلبث المنصور أن قضى على هذه الثورة قضاء مبرما ، ولم يعد العلويون

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٣١ وما بعدها .
(٢) النزعة : الرماة .
(٣) ذيل الأمالى للقالى ص ١٢١ .
(٤) بدداً : متفرقين .

— كما أسلفنا فى غير هذا الموضع — يحاولون الثورة جهاراً على أبناء عمهم ، بل عمدوا إلى السرية خوفاً من بطشهم وما عوَّدوه الناس من إقناعهم بالسيف دون اللسان . وتضاءلت حينئذ — كما قدمنا — حركات الخوارج ، فلم يكن هناك إلا السيف أو الإذعان . وبذلك كُمِّمت الأفواه ، وضعفت الخطابة السياسية فى هذا العصر ضعفاً شديداً ، لأنها إنما تزدهر حين تُكْفَلُ للناس حرياتهم السياسية على نحو ما كان الشأن فى عصر بنى أمية ، أما فى هذا العصر فقد أخذ العباسيون الناس بالشدة فضعفت الأحزاب السياسية وفنيت أو ذابت حريتهم فى سلطانهم الباطش بكل مَنْ حدثته نفسه بخروجٍ عليهم بل بخلاف أو ما يشبه الخلاف ، وحقا عادت الخطابة السياسية إلى الظهور فى فتنة الأمين وحروبه مع أخيه المأمون ، ولكن لم تعد لها قوتها القديمة فى العصر الأموى وما كانت تمتاز به من روعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه .

وعلى نحو ما ضعفت الخطابة السياسية ضعفت الخطابة الحفلية التى كنا نعهدها فى عصر بنى أمية لسبب طبيعى ، وهو أن وفود العرب لم تعد تَفِدُ على قصور الخلفاء ، وبالتالى لم يعد خطباؤها يفدون عليهم ، فقد أُسْدلت الحجب بين الخليفة والرعية ، ولم يعد يَلْقَى وفودها ولا خطباءها المفوَّهين . واقتصرت الخطابة الحفلية حينئذ على بعض مناسبات كأن يموت للخليفة ابن أو بنت فيقف بعض الخطباء لتعزيته ، وكأن يموت خليفة ويتولى خليفة جديد فيجمع بعض الخطباء بين التعزية والتهنئة ، من مثل قول ابن عتبة للمهدى يهنئه بالخلافة ويعزيه فى أبيه المنصور[1] :

« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين ، فاقْبَلْ يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسبْ عنده أعظم الرزيّة » .

وكان يُعْقَدُ لبيعة الخليفة حفل عام يحضره القواد وكبار رجال الدولة ، وعادة يقف بعض الكتاب النابهين خطيبا بين يدى الخليفة الجديد منوِّهاً بجلال الخلافة وإرث الخليفة لها وما له على القواد ورجال الدولة والناس من الطاعة علو بين

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٩٢ .

وغير علويين ، على نحو ما يلقانا عند يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب فى خطبته بين يدى الرشيد حين جلس بين القواد والأمراء والوزراء لأخذ البيعة له ، وهو يستهلها على هذا النمط بعد حمد الله والصلاة على رسوله[١] :

« إن الله بمنّه ولطفه مَنّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه ، بيت الخلافه ومعدن الرسالة ، وإياكم أهلَ الطاعة من أنصار الدولة وأعوان الدعوة من نعمه التى لاتحصى بالعدد ، ولا تنقضى مدى الأبد . وأياديه التامة أن جمع ألفتكم وأعلى أمركم ، وشدَّ عَضُدكم وأوهن عدوكم وأظهر كلمة الحق وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزَّكم الله وكان الله قويًّا عزيزاً ، فكنتم أنصار دين الله المرتضى والذَّابِّين بسيفه المنتضى عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، وبكم استنقذهم من أيدى الظَّلمَة أئمة الجور والناقضين عهد الله والسافكين الدَّمَ الحرام والآكلين الفَيْء[٢] والمستأثرين به » .

وعلى هذا النحو أصبحت الخطابة الحفلية شيئًا نادراً يقال فى الحين الطويل بعد الحين ، وبذلك تضاءلت كما تضاءلت الخطابة السياسية ولم يعد لها شأن يذكر .

وقد ظل للخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ازدهارُها فى هذا العصر ، وعلى نحو ما كان الخلفاء والولاة يشاركون فيها لعصر بنى أمية كانوا يشاركون فيها أيضًا لهذا العهد ، إذ نجد للمهدى خطبة بارعة مأثورة[٣] ، كما نجد للرشيد خطبة أخرى رائعة ، وفيها يقول[٤] :

« عبادَ الله إنكم لم تُخْلَقُوا عبثا وان تُتْركوا سُدًى ، حَصِّنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له » . إنكم سَفْرٌ[٥] مجتازون وأنتم عن قريب تنْتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابَة

---

(١) تاريخ الطبرى ٦/٤٤٢ .
(٢) الفىء : غنائم الحرب .
(٣) العقد الفريد ٤/١٠١ .
(٤) العقد الفريد ٤/١٠٢ .
(٥) السفر : الجماعة المسافرون .

فإن الله ، تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين » .

على أننا نجد الرشيد يسنّ سُنَّةً كانت سببًا فى أن تضعف هذه الخطابة على ألسنة الخلفاء ، إذ طلب إلى الأصمعى أن يعدّ لابنه الأمين خطبة يخطب بها يوم الجمعة[١] ، كما طلب إلى إسماعيل اليزيدى وابن أخيه أحمد أن يُعِدّا خطبة مماثلة يخطب بها المأمون[٢] ، وبذلك سنّ للخلفاء أن يخطبوا بكلام غيرهم ، وكان المأمون معروفا بالفصاحة والجهارة وحلاوة اللفظ وجودة اللهجة والطلاوة[٣] ، وقد روى له ابن قتيبة ثلاث خطب[٤] : أولاها فى يوم جمعة وثانيتها فى يوم الأضحى وثالثتها فى عيد الفطر وفيها يقول :

« اتّقوا الله عبادَ الله وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فإنه لا تستقال بعده عَثْرة ولا تُحْظَرُ قبله توبة ، واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونه ، ولا شىء بعده إلا فوقه .. ولا يعين على القبر وظُلْمته وضيقه ووحشته وهول مَطْلعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلّتْ عند الموت قدمه فقد ظَهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرَّجْعة إلى ما لا يجاب إليه وبذل من الفِدْية ما لا يُقْبَلُ منه » .

ومعروف أن الولاة كانوا يجمعون بين الولاية والصلاة ، ويظهر أنهم أخذوا مع مر الزمن يخطبون بكلام غيرهم ، وقد يندبون من يقوم مقامهم فى الصلاة والخطابة ، ويذكر الجاحظ عن محمد بن سليمان العباسى والى البصرة والكوفة لعهد المنصور والمهدى أنه كانت له خطبة يوم الجمعة لا يغيّرها ، وهى خطبة قصيرة[٥] .

ولكن إذا كانت الخطابة الدينية أخذت تضعف على لسان الولاة والخلفاء فإنها أينعت فى بيئة الوعاظ والنساك ممن كانت تزخر بهم مساجد بغداد والبصرة والكوفة ، وكانوا أخلاطا من الزهاد والفقهاء والمحدّثين والمتكلمين ، وكان بعضهم يلمّ بمجالس الخلفاء لوعظهم ، وأحيانا كانوا يستقدمونهم ، فيعظونهم حتى يبكوهم ،

---

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/٢٠ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ١/٩١ ، ١١٥ .
(٤) عيون الأخبار ٢/٢٥٣ وما بعدها .
(٥) انظرها فى البيان والتبيين ٢/١٢٩ .

بما يوقعون فى نفوسهم من خشية عقاب الله وبما يصورون لهم من زفير جهنم ، وهم فى تضاعيف ذلك يزجرونهم عن ظلم الرعية واقتراف المعاصى والسيئات . ومن كبارهم الذين عُرفوا بمقاماتهم المحمودة بين أيدى الخلفاء ثلاثة هم عمرو بن عبيد المعتزلى الزاهد المشهور واعظ المنصور وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدى وابن السماك واعظ الرشيد ، ويُرْوَى عن أولهم أنه دخل على المنصور يوما فقال له : عِظْنى ، فقال[1] :

« إن الله أعطاك الدنيا بأسْرها فاستر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تمخَّض عن يوم لا ليلة بعده . فوجَم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع[2] : يا عمرو غممت أمير المؤمنين . فقال عمرو : إن هذا صَحِبك عشرين سنة لم يرلك عليه أن ينصحك يوما واحداً ، وما عمل وراء بابك بشىء من كتاب الله ولا سُنَّة نبيه قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ ! قد قلت لك : خاتمى فى يدك فتعال وأصحابك[3] ، فاكْفنى . قال عمرو : ادْعُنا بعَدْ لك تَسْخُ أنفسنا بعونك . ببابك آلف مظلمة ارْدُدْ منها شيئًا نعلم أنك صادق » .

وكان صالح بن عبد الجليل ناسكا مفوَّها ، وكان يلمُّ بمجالس المهدى ويعظه ، ويطيل فى وعظه له حتى يبكيه وحتى يذرف الدمع مدراراً ، ويُرْوَى أنه دخل عليه يوما فسأله أن يأذن له فى الكلام ، فقال له تكلَّمْ ، ومن بعض كلامه حينئذ[4] :

« كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجَب الله عنه العلم عذَّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابا مَنْ أقبل إليه العلم وأدبر عنه ، ومَنْ أهدى الله إليه علما فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله وقصَّر بها ، فاقْبَلْ ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبولَ تحقيق وعملٍ لا قبولَ سُمْعة ورياء فإنه لا يَعْدمك منا إعلامٌ لما تجهل أو مواطأةٌ على ما تعلم أو تذكيرٌ من غفلة ، فقد وطَّن الله عزَّ وجلَّ نبيَّه عليه السلام على نزولها تعزيةً عما فات وتحصينًا من النادى ودلالة على المَخْرج فقال : (وإما يَنْزَغَنَّك من الشيطان نَزْغٌ

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ٣٣٧ .
(٢) حاجب المنصور .
(٣) يريد أصحابه من المعتزلة الناسكين .
(٤) عيون الأخبار ٢ / ٣٣٣ .

فاستَعِذْ بالله) فأطلع الله على قلبك بما يُنَوِّره من إيثار الحق ومنابذة الأهواء، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وكان ابن السماك محدثاً وواعظاً مؤثراً ، رَوَى عنه أحمد بن حنبل وغيره، وله كلام ومواقف بين يدى الرشيد تدور فى كتب التاريخ والأدب ، ومما يؤثر عنه أنه دخل عليه يوماً ، فقال له الرشيد : عِظْنى ، فقال[1] :

« يا أمير المؤمنين : اتَّقِ الله وحده لا شريك له ، واعلمْ أنك واقفٌ غَداً بين يدى الله ربك ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما جنة أو نار. فبكى هرون حتى اخضلَّتْ لحيته[2] » .

وكان هؤلاء الوعاظ يستمدون دائماً من الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم وأقوال أصحابه ومَنْ سبقوهم إلى الوعظ فى العصر الأموى من مثل الحسن البصرى ، ودائماً تبهرنا مواعظهم لما أشاعوا فيها من إيمان شديد بالدين وثقة وطيدة بأن ما عند الله خير وأبقى مما فى أيدى الناس من متاع الحياة الزائل .

وكثير من الوعَّاظ كانوا يمزجون وعظهم بالقصص الدينى وتفسير بعض آى القرآن؛ وهو مزج قديم منذ الصدر الأول للإسلام . وكثر هؤلاء القصاص الوعاظ فى عصر بنى أمية مما جعل الجاحظ يعقد لهم فصلا[3] طريفا فى كتابه البيان والتبيين ، وفيه يقول عن قُصَّاص العصر العباسى الأول :

« ومن القُصَّاص موسى بن سيار الأُسْوارى وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه والفُرْس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين . واللغتان إذا التقتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضَّيْم على صاحبتها إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأُسْوارى . ولم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محرابٍ من موسى بن سَيَّار ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ثم يونس النحوى ثم المعلَّى . ثم

(١) تاريخ الطبرى ٦/٥٣٨ .
(٢) اخضلت : بللتها الدموع .
(٣) انظر البيان والتبيين ١/٣٦٧ وما بعدها.

قصَّ فى مسجده أبو على الأسوارىّ وهو عمرو بن فائد ستا وثلاثين سنة ، فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسَّر آية واحدة فى عدة أسابيع . . وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث كثيراً ، وكان يقصُّ فى فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك . . ثم قصَّ بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يُدْرَك فى القُصَّاص مثله . وكان يقصّ معهما وبعدهما مالك بن عبد الحميد المكفوف . . فأما صالح المُرِّى فكان يُكْنَى أبا بشر ، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس . وسمعه سفيان بن حبيب (أحد كبار المحدثين) فقال ليس هذا قاصًّا ، هذا نذير » .

ووقف الجاحظ فى بيانه مراراً عند صالح المُرِّى حاكياً بعض كلامه ، أو بعض ما كان يردِّده من شعر فى قصصه ، من ذلك قوله عنه : « كان صالح المرى القاص العابد البليغ كثيراً ما يُنْشد فى قصصه وفى مواعظه هذا البيت الذى أنشدناه فى غير هذا الموضع :

فبات يُروِّى أصولَ الفَسِيلِ فعاش الفَسِيلُ ومات الرَّجُلْ »[1]

ومن ذلك ما يُذْكَرُ من أنه مات ابنٌ لعبيد الله بن الحسن قاضى البصرة . فعزَّاه صالح المرى ، فقال : « إن كانت مصيبتك فى ابنك أحدثتْ لك عظة فى نفسك ، فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن لم تكن أحدثتْ لك عظة فى نفسك فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى ابنك[2] » . وعزَّى رجلا فى أخيه فقال : « إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثتْ لك خَشْيَةً فنعم المصيبة مصيبتك ، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جَزَعًا فبئس المصيبة مصيبتك[3] » . ويذكر الجاحظ أنه كان كثيراً ما يردد فى مجلسه : « أعوذ بك من الخَسْف والمَسْخ والرَّجْفَة والزلزلة والصاعقة والريح المهلكة ، وأعوذ بك من جَهْد البلاء ومن شماتة الأعداء » . وكان يقول : أعوذ بك من التَّعب والتعذر والخَيْبة وسوء المنقلب . اللهم من أرادنى بخير فيَسِّرْ لى خيره ، ومَنْ أرادنى بشر فاكْفِنِى شَرَّه . اللهم إنى

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٩ .
(٢) البيان والتبيين ٢/٨٢ .
(٣) البيان والتبيين ٣/١٧١ .

أسألك خِصْب الرَّحْل[١] ، وصلاح الأهل[٢] » . وروى الجاحظ من بعض وعظه فى كتابه الحيوان قوله : « تَغْدو الطير خِماصًا وتروح شِباعًا ، واثقةً بأن لها فى كل غدوة رزقا لا يفوتها . والذى نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرُحْتم وبطونكم أبْطَنُ من بطون الحوامل[٣] » .

وواضح مما روينا من كلام صالح المُرِّىّ وغيره من القُصَّاص والوعاظ أنهم ارتقوا بصناعة النثر فى المعانى التى كانوا يرددونها رقيا بعيداً ، إذ شعَّبوا وفرَّعوا فى تلك المعانى طويلا ، واستنبطوا فيها كثيراً من الدقائق التى تمسُّ القلوب والعقول. وأضافوا إلى ذلك عناية واسعة بأساليبهم ، وهى عناية تقوم على الدقة فى اختيار اللفظ والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة . وأدَّاهم ذلك فى بعض الأحيان إلى استخدام السجع ، بل كان منهم من أكثر من استخدامه مثل الفضل ابن عيسى الرقاشى وفيه يقول الجاحظ كان سجَّاعا فى قصصه[٤] ، وكان من أخطب الناس وكان متكلمًا قاصًّا مجيداً[٥] ، ويروى من وعظه : « سَلِ الأرض فقل من شقَّ أنهارك وغرس أشجارك ، فإن لم تُجِبْك حواراً ، أجابتك اعتبارا[٦] » ويقول الجاحظ : « كان يتلو الآية التى فيها ذكر الجنة والنار والموت والحشر[٧] » ثم يفيض فى الوعظ . وكان ابنه عبد الصمد قاصًّا مثله ، وكان أغزر منه وأبين وأعجب وأخطب[٨] ، وقيل له : « لِمَ تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافى (أى روىّ الأسجاع) وإقامة الوزن ؟ قال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه إلا سماع المشاهد لقلَّ خلافى عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلُّت[٩] » .

---

(١) الرحل هنا : المسكن والبيت .
(٢) البيان والتبيين ٣ / ٢٨٨ .
(٣) الحيوان ٧ / ٦٢ .
(٤) البيان والتبيين ١ / ٢٩٠ .
(٥) البيان والتبيين ١ / ٣٠٦ .
(٦) البيان والتبيين ١ / ٣٠٨ .
(٧) البيان والتبيين ١ / ٢٩١ .
(٨) البيان والتبيين ١ / ٣٠٨ .
(٩) البيان والتبيين ١ / ٢٨٧ .

٣

المناظرات

قلما عُنِى مؤرخو الأدب العباسى بالحديث عن المناظرات التى احتدمت بين المتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل والنحل لهذا العصر مع أنها كانت من أهم الفنون النثرية وكانت تشغل الناس على اختلاف طبقاتهم ، لسبب بسيط وهو أنها كثيراً ما كانت تنعقد فى المساجد ، وقد مرَّ بنا أن مجالس البرامكة والمأمون كانت تكتظ بهذه المناظرات ، وأنه كان وراء مجالسهما مجالس صغرى كثيرة ، يجتمع فيها المتناظرون من الشيعة والزنادقة والمتكلمين ، ويتحاورون فى المسائل العقيدية وغير العقيدية ، وقد يخوضون فى بعض المسائل الفلسفية ، على نحو ما كانت تخوض مجالس البرامكة ، وبالمثل كان يتناظر الفقهاء ، ومناظرة الشافعى ومحمد بن الحسن الشيبانى مشهورة .

والمعتزلةُ أهمُّ طوائف المتناظرين حينئذ ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم فى أصولهم الخمسة التى تحدثنا عنها فى غير هذا الموضع وجدال من كانوا يعتنقون التشيع الغالى مثل شيطان الطاق وهشام بن الحكم وجادلوا جدالا عنيفاً أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية من الدهرية والمانوية ، ومن أشهرهم فى الجدال والمناظرة أبو الهذيل العلاف المتوفى فى حوالى سنة ٢٣٠ للهجرة ، وفيه يقول ابن خلكان : « كان حسن الجدال قوى الحجة كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات » . وروى الخطيب[١] البغدادى والمرتضى[٢] فى أماليه وبعض المراجع القديمة طائفة من مناظراته . من ذلك مناظرته فى حداثته ليهودى وَرَد البصرة ، وتعرَّض لمتكلميها يقول لهم ألا تقرُّون بنبوة موسى عليه السلام ؟ حتى إذا اعترفوا بها قال : نحن على ما اتفقنا عليه إلى أن نجتمع على ما تدَّعونه . فتقدم إليه ، وقال له : أسألك أم تسألنى ؟ فقال له اليهودى : بل أسألك فقال : ذاك إليك ، فقال اليهودى : أتعترف بأن موسى نبىٌّ صادق أم تنكر ذلك فتخالف صاحبك ، فقال له أبو الهذيل : إن كان موسى الذى تسألنى عنه هو الذى بشَّر بنبيِّى

---

(١) تاريخ بغداد ٣/٣٦٦ وما بعدها .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٧٨ وما بعدها .

عليه السلام وشهد بنبوته وصدّقه فهو نبي صادق ، وإن كان غير من وصفتُ فذلك شيطان لا أعترف بنبوته . فورد على اليهودى ما لم يكن فى حسبانه . ولم يلبث أن سأل أبا الهذيل : أتقول إن التوراة حق ؟ فقال : هذه المسألة تجرى مجرى الأولى ، إن كانت هذه التوراة التى تسألنى عنها هى التى تتضمن البشارة بنبيي عليه السلام فتلك حق ، وإن لم تكن كذلك فليست بحق ولا أقرُّ بها . فبهُت اليهودى وأفحم ولم يدر ما يقول . وناظر يوماً مجوسيًّا فسأله ما تقول فى النار ؟ قال : بنت الله ، قال فالبقر ؟ قال : ملائكة الله قَصَّ أجنحتها وحَطَّها إلى الأرض يُحْرَثُ عليها ، قال : فالماء ؟ قال : نور الله ، قال أبو الهذيل فما الجوع والعطش ؟ قال : فَقْر الشيطان وفاقته ، قال أبو الهذيل : فمن يحمل الأرض ؟ قال : بهمن الملك . حينئذ قال أبو الهذيل : فما فى الدنيا شر من المجوس أخذوا ملائكة الله فذبحوها ، ثم غسلوها بنور الله ثم شَوَوْها ببنت الله ، ثم دفعوها إلى فقر الشيطان وفاقته ، ثم سلخوها على رأس بهمن الملك أعز ملائكة الله . فانقطع المجوسى وخجل مما لزمه . وقال له المعذّل بن غيلان يوماً إن فى نفسى شيئاً من القول بالاستطاعة وأن الإنسان حُرٌّ حرية مطلقة فى أعماله فبيّن لى ما يُذهب الريب عنى ، فقال له : خبِّرْنى عن قول الله تعالى : (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) هل يخلو من أن يكون أكذبهم لأنهم مستطيعون الخروج وهم تاركون له ، فلاستطاعة الخروج فيهم وليسوا يخرجون قال (إنهم لكاذبون) أى هم يستطيعون الخروج وهم يكذبون فيقولون : لسنا نستطيع ، ولو استطعنا لخرجنا ، فأكذبهم الله على هذا الوجه . أو يكون على وجه آخر يقول : (إنهم لكاذبون) أى إن أعطيتهم الاستطاعة لم يخرجوا ، فتكون معهم الاستطاعة على الخروج ولا يخرجون . وعلى كل حال قد كانت الاستطاعة على الخروج ثابتة لهم . ولا يعقل للآية معنى ثالث غير الوجهين اللذين وصفنا . وبذلك أقام الحجة القاطعة على الاستطاعة من لفظ القرآن الكريم ، حتى ينقض ما يستشهد به أصحاب الجبر وتعطيل إرادة الإنسان وحريته من بعض آيه التى لا تعطيهم الدلالة البينة الملزمة . وكان يتعمق ببعض مناظراته فى مسائل فلسفية كقوله إن حركات أهل

الجنة والنار لا تبقى بل تنقلب إلى سكون دائم ؛ تجتمع فيه اللذات لأهل الجنة ويجتمع العذاب لأهل النار ، إلى غير ذلك من الآراء المبسوطة فى الملل والنحل للشهرستانى وفى مقالات الإسلاميين للأشعرى.

وكان ابن أخته النظام لا يقل عنه قوة فى الجدل والإقناع وإفحام الخصوم ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع كيف أفحم أبا شَمِر الجَبْرِىَّ المرجئ وقطعه بالبراهين الساطعة ، حتى زحف إليه وأمسك بيديه ليسكت . ويقول ابن النديم إنه ما زال يناظر الحسين النجار فى الجبر وحرية الإرادة ، حتى انصرف محموماً مغموماً وكان ذلك سبب علته التى مات فيها[1] . وهو يُعَدُّ أكبر من جادلوا الدهرية والمانوية وغيرهما من أصحاب النحل غير الإسلامية لعصره ، حتى ليقول الجاحظ على نحو ما مر بنا فى ترجمتنا له بين الشعراء : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل ، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سُبُلاً وفتَق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة[2] ». وحكى الجاحظ كثيراً من جداله وروده على الدهرية والمنَّانية والدَّيْصانية ، وفى الجزء الخامس من كتاب الحيوان مادة من ذلك كثيرة ، نراه فيها يرد على من يقولون بأن أصل العالم ضياء وظلام وأن الحرارة والبرودة واللون والطعم والصوت والرائحة إنما هى نتائج على قدر امتزاجها ، ويلاحظ أنهم يقفون عند حاسَّة اللمس فقط دون غيرها من الحواس. ويبحث مباحث واسعة فى النار وأنها حر وضياء وأن الضياء ليس بلون لأنه إذا سقط على الألوان المختلفة كان عمله فيها واحداً . ويفيض فى ردود كثيرة على المجوس ، واحتفظ أبو الحسين الخياط هو الآخر بكثير من هذه الردود ، من ذلك قول المنانية بالنور والظلمة وأن النور هو مصدر كل خير والظلمة مصدر كل شر ، فالصدق خير لأنه من النور والكذب شر لأنه من الظلمة ، مما جعله يقول لهم : « حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه مَنْ الكاذبُ ؟ قالوا الظلمة ، قال : فإن ندم بعد ذلك على ما فعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت ، من القائل : قد كذبتُ ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا ما يقولون ، فقال لهم إبراهم : إن زعمتم أن النور هو

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٥٤ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٦ .

القائل : قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهو هدم قولكم ، وإن قلتم إن الظلمة قالت : قد كذبت وأسأت فقد صدقت ، والصدق خير ، فقد كان من الظلمة صدق وكذب ، وهما عندكم مختلفان ، فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان : خير وشر على حكمكم ، وهذا هَدْم قولكم بقدم الاثنين[1]» أى الخير والشر وإلههما اللذين يؤمنون بهما . وعلى نحو ما كان يناظر المانية ويَقْطعهم كان يناظر الدهرية القائلين بالدهر وخلوده وأن حركات الأفلاك لا تتناهى ، ويفحمهم بمنطقه وقوة نسجه للأدلة ، من ذلك أنه تعرَّض لهم يوما يجادلهم فيما يزعمون من عدم التناهى فى حركات الأفلاك ، وكان مما قاله لهم : « ليس تخلو الكواكب من أن تكون متساوية الحركة ، لا فضل لبعضها على بعض فى السير والقطع أو بعضها أسرع قطعاً وسيراً من بعض ، فإن كانت متساوية القطع فقطعُ بعضها أقل من قطع جميعها ، وإذا أضيف قطع بعضها إلى قطع البعض الآخر كان قطع الجميع أكثر من قطع الواحد ، وإن كان بعضها أسرع من بعض قطعا ، فقد دخلته القلة والكثرة وما دخلته القلة والكثرة متناه[2] » وهو تناه يدل على حدوث الحركة . وكان يكثر من مناظرة خاله أبى الهذيل ويعلو عليه بقوة حججه ، مما جعله يراوغه كثيراً ويعتلُّ عليه ، حتى قال له بعض مستمعيهما : « إنك إذا راوغتَ واعتللت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه ، فقال : خمسون شكًّا خير من يقين واحد[3] » . ومر بنا فى غير هذا الموضع بعض آرائه الفلسفية وفى الحق أنه هو وخاله وغيرهما من المعتزلة غمسوا آراءهم وتفكيرهم فى الفلسفة غمساً. ونراه يحوِّل كل شيء إلى المناظرة ، فهو يناظر فى الآراء العقيدية وفى الآراء الفلسفية مما ذكرناه فى ترجمته السابقة كما يناظر فى المسائل الطبيعية وفى الحيوان . ومناظرته لمعبد فى مساوىء الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره مشهورة وقد شغلت نحو مجلد ونصف من كتاب الحيوان للجاحظ ، إذ استقصيا جميع الجوانب المتصلة بذلك استقصاء يدل على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى العصر

---

(١) كتاب الانتصار لأبى الحسين الخياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٠ .

(٢) انظر كتاب الانتصار ص ٣٥ .

(٣) حيوان ٣/٦٠ .

العباسى . وهى وما يماثلها لم تكن تُراد لنفسها وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله فى خَلْقه وما أودعه فيهمن ذخائر الحكمة ، كما كانت تُراد للفرق بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين لا فى بحث عجائب الكون فى الحيوان فقط بل فى بحث كل صور الوجود أيضا وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلةُ هذا الجدالَ العقلى على النسك والعبادة وجعلوه فوق الحج والجهاد[١] .

وفى الحق أنهم بسطوا بهذا الجدال وما اتصل به من مناظرةِ العقلَ العربىَّ إلى أبعد غاية ، فقد أمدُّوه بسيول من دقائق المعانى وخفيات البراهين ، وجعلوه عقلا جدلا ما يزال ينقب عن خبيئات الأفكار ،وما يزال يجلب من أعمق الأعماق دُررَها الباهرة . وقد تعاوروا على الأشياء المشهورة يصححونها ويسددونها ،وتعاور معهم كثير من معاصريهم الذين مضوا يتقنون على شاكلتهم الحوار فى كل شىء . ومن طريف ما يصوِّر ذلك أن نجد الجاحظ يذكر أن شخصًا يسمى جعفر بن سعيد كان يفضل الديك على الطاووس ، كأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطواويس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله فى ذلك على هذا النمط[٢] :

« كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحمدُ من الطاووس وأنه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلّعه[٣] إذا مشى سليم من مقابح الطاووس ومن مُوقه[٤] وقبح صورته ! ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قبح رجليه ونذالة مَرْآته . وزعم أنه لو ملك طاووسا لألبس رجليه خُفًّا . وكان يقول : وإنما يُفْخَر له بالتلاوين وبتلك التعاريج والتهاويل التى لألوان ريشه ، وربما رأيت الديك النَّبطى وفيه شبيه بذلك إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف وأسلم من العيوب من الطاووس . وكان يقول : ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطى فى تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القَدِّ والخَرْط وبفضل حسن الانتصاب وجودة الإشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك ولكان السليم من العيوب فى العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حُسْن الطاووس

---

(١) حيوان ١/٢١٦ .
(٢) حيوان ٢/٢٤٣ .
(٣) التقلع : التحدر فى المشى .
(٤) الموق : الحمق .

فى عين الناظر إليه . وأول منازل الحمد السلامة من الذم . . والعامة لا تبصر الجمال ، ولفرسٌ رائع كريم أحسن من كل طاووس فى الأرض ، وكذلك الرجل والمرأة . وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط ، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه كحسن البازى وانتصابه ، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشيات والهيئة والرأس والوجه الذى فيه . وكان جعفر يقول : لما لم يكن فى الطاووس إلا حسنه فى ألوانه ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويَشْغل عنهُ ذكر وتبين وظهر . وخصال الديك كثيرة وهى متكافئة فى الجمال » .

وواضح أن هذه قدرة بارعة فى الجدل وفى تأليف الحجج والأدلة ، وهى تدل على ما أصاب العقل العربى حينئذ من رقى جعله يستقصى ما يتحدث عنه أحسن استقصاء وأدقه ، استقصاء يحرص فيه المتكلم على التدقيق والتعمق كأشد ما يكون التعمق والتدقيق وكان يصحب ذلك بكثير من الظرف ومن السفسطة التى تدل على ترف العقل وارتفاعه عن الآراء الشائعة ، ويصوِّر ذلك من بعض الوجوه ما حكاه الجاحظ فى فاتحة كتابه البخلاء عن مذهب مَنْ يسمَّى باسم الجَهْجاه « فى تحسين الكذب فى مواضع وفى تقبيح الصدق فى مواضع وفى إلحاق الكذب بمرتبة الصدق وفى حَطِّ الصدق إلى موضع الكذب وأن الناس يظلمون الكذب بتناسى مناقبه وتذكُّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكُّر منافعه وبتناسى مضاره وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدَّلوا بين خصالهما لما فرَّقوا بينهما هذا التفريق ولما رأوهما بهذه العيون » . ويتلو الجاحظ هذا المذهب بمذهب من يسمَّى باسم صَحْصح « فى تفضيل النسيان على كثير من الذكر وأن الغباء فى الجملة أنفع من الفطنة فى الجملة وأن عيش البهائم أحسن موقعا فى النفوس من عيش العقلاء وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلا ذا مروءة أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غَباء وغفلة لكان الشحم إلى البهيمة أسرع وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، ولأن العقل مقرون بالحذر والاهتمام ولأن الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تَقْنو شحما فى الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذى الهمة البعيدة ، ومتوقِّع البلاء فى البلاء وإن سلم منه ، والغافل فى الرجاء إلى أن يدركه البلاء » .

وقد يقال إن هذا التقبيح للأشياء المستحسنة والتحسين للأشياء المستقبحة عُرف

فى الأدب الفهلوى القديم ، وأن العباسيين تأثروا فى هذا الاتجاه بما كان منه فى هذا الأدب ، ونحن لا ننفى ذلك ، وإنما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا فى هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وما داخلها من سفسطة أحيانا ، بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطا من أنماط التفكير العباسى ، وبحيث عمَّ فى كل شىء ، مما سيأتى فيما بعد هذا العصر لظهور كتب المحاسن والمساوى . ونضيف أن المتكلمين تأثروا أيضًا فى مناظراتهم بما كان فى التراث الفلسفى اليونانى من جدال وحوار ، وبخاصة فى المسائل الفلسفية الخالصة ، ومعروف أن أفلاطون كان يدير كثيراً من رسائله على الحوار والجدل بين نَفَرٍ من الفلاسفة ، على نحو ما هو معروف فى رسالته أو كتابه الذى سماه المأدبة وفيه جلبَ سقراط وبعض المتفلسفة ليتحاوروا فى عاطفة الحب ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن يحيى البرمكى دعا من كانوا يتناظرون بمجالسه فى المسائل الفلسفية والكلامية إلى الحديث عن العشق ، وكان حديثًا طويلا تبادل هؤلاء المتناظرون آراءهم فيه ، وأكبر الظن أنهم سمعوا بمأدبة أفلاطون إن لم يكن بعضهم قد اطلع عليها مترجمةً ، ولم يُنْقَلْ لنا جميع هذا الحديث الطريف ، إنما نُقل بعض ما تحدَّث به مَنْ شاركوا فى هذه المحاورة البديعة ، نَقَلَه المسعودى فى كتابه مروج الذهب على هذه الشاكلة[1] :

« قال على بن ميثم (المتكلم الشيعى) : العشق ثمر المشاكلة وهو دليل على تمازج الروحين ، وهو من بحر اللطافة ورقة الطبيعة وصفاء الجوهر ، والزيادة فيه نقصان من الجسد .

وقال أبو مالك الحضرمى وهو خارجى المذهب : العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولا يكون إلا بازدواج الطبعين وامتزاج الشكلين ، وله نفوذ فى القلب كنفوذ صَيِّب المزن فى خَلَل الرَّمْل تنقاد له العقول وتستكين له الآراء .

وقال أبو الهذيل العلاف المعتزلى : العشق يختم على النواظر ويطبع على الأفئدة مرتق فى الأجساد ومسرعة فى الأكباد ، وصاحبه منصرف الظنون متغير الأوهام لا يصفو له موجود ، ولا يسلم له موعود ، تسرع إليه النوائب . وهو جرعة من نقيع الموت ، وبقية من حياض الثكل ، غير أنه من أريحية تكون فى الطبع وطلاوة

---

(١) مروج الذهب ٣/٢٨٦ .

توجد فى الشمائل وصاحبه جواد لا يَصْغو (يميل) إلى داعية المنع ولا يسنح به (يصرفه) نازع العذل.

وقال إبراهيم النظام بن يسار المعتزلى : العشق أرق من الشراب ، وأدبّ من الشباب ، وهو من طينة عطرة عُجنت فى إناء من الحلى ، حلو المجتنى ما اقتصد ، فإذا أفرط عاد صِلاًّ قاتلا ، وفساداً معضلا ، لا يُطْمَعُ فى إصلاحه. له سحابة غزيرة على القلوب ، فتُعْشب شغفاً وتُثْمر كلفا . وصريعه دائم اللوعة ضيق المتنفَّس طويل الفكر إذا جَنَّه الليل أرق وإذا أوضحه النهار قلق ، صَوْمُهُ البَلْوَى ، وإفطارُه الشكوى.

ثم قال الخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ومن يليهم، حتى طال الكلام فى العشق بألفاظ مختلفة ومعان تتقارب وتتناسب ، وفيما مرَّ دليل عليه ».

وكنا نتمنى لو أن المسعودى أورد كل ما قاله هؤلاء المتحاورون إذن لورثنا عن العباسيين مأدبة فى العشق تقابل مأدبة أفلاطون . والذى لا شك فيه — كما أسلفنا — أن هذه المأدبة كانت تحت أعين معاصريهم كما كانت تحت بصر من جاءوا بعدهم مثل المسعودى ، وأن الشعراء استمدوا منها كثيراً من معانيهم فى العشق والغزل . ومضى المسعودى يذكر بعض ما أُثر عن الفلاسفة والأطباء فى العشق، مما يقطع بأن العباسيين إن لم يعرفوا مأدبة أفلاطون فقد سقطت إليهم آراء يونانية مختلفة فى الحب والهوى .

وواضح ما فى هذا الحوار عن العشق من دقة فى المعانى ومن حسن سبك وأداء ، حتى ليُعْنَى بعض المتحاورين بأن يكون كلامه مسجوعا ، مما يدل دلالة بينة على أن المتناظرين كانوا لا يزالون يتعهدون كلامهم ويصوغونه صياغة باهرة ؛ وبذلك أعدوا لتطور النثر تطوراً واسعا فى مضامينه الجديدة التى لم يكن للعربية بها عهد وفى أساليبه وما شفعوها به من حسن السبك وجمال الصياغة والأداء.

وليس ذلك فحسب كل ما قدمه فن المناظرة للنثر فى هذا العصر ، فقد جعل المتكلمون والمتناظرون وفى مقدمتهم المعتزلة يبحثون فى بلاغة القول ويكثرون من ملاحظاتهم فى هذا الاتجاه على نحو ما صوَّرنا ذلك فى غير هذا الموضع ، مما أعدَّ لوضع أصول البلاغة العربية .

٤

الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات

تحدثنا فى الفصل الأول عن تعقد الدواوين فى هذا العصر وتنوعها ، فدواوين للخراج ودواوين للنفقات ودواوين للجيش ودواوين للحروب ودواوين للرسائل ودواوين للخاتم ودواوين لشرقىّ الدولة ودواوين لغربيها ، ولكل ولاية ديوان ، وفوق هذه الدواوين ما يسمّى ديوان الزمام الذى ينظر فى ضبط كل ديوان على حدة . وبجانب هذه الدواوين العامة فى بغداددواوين فى الولايات للخراج والرسائل ودواوين أخرى لأولياء العهد وللأمراء ولاوزراء وكبار القواد ، ومَنْ لم يتخذ من هؤلاء ديوانا كبيراً كان له كاتبٌ يكتب عنه وينظر فى تدبير أمواله ونفقاته وضياعه ، وحتى نساء الخلفاء كن يتخذْن الكتاب ، وكذلك كان يتخذهم بعض القضاة والعلماء للكتابة عنهم .

وبذلك نشطت الكتابة فى هذا العصر نشاطًا واسعًا ، فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم فى ذلك ما كانت تدرُّه عليهم من أرزاق واسعة . وكان مَنْ يُظْهِر منهم مهارة فى دواوين الخلافة سرعان ما يرقى إلى رياسة الديوان الذى يعمل فيه . وقد تُقْبِل عليه الدنيا فيصبح رئيسًا لمجموعة من الدواوين ، وقد يصبح وزيراً للخليفة يسوس الدولة ويدبر أمورها وشئونها ، فإن لم يصبح وزيراً أصبح والياً لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخى الذى كتب للمهدى والهادى والبرامكة وقد ولى مصر فى عصر الهادى والأمين ، ومثل الحسن بن رجاء كاتب المأمون الذى ولى فارس ومثل عمر بن مهران كاتب الخيزران أم الرشيد وقد ولاه مصر فى بعض السنين . وكثير من الولاة والقواد كانوا يحسنون الكتابة إلى أبعد غاية مثل جعفر بن محمد بن الأشعث والى خراسان للرشيد ومثل طاهر بن الحسين قائد المأمون وواليه على خراسان وابنه عبدالله بن طاهر والى مصر والشام والجزيرة ثم والى خراسان ومثل أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور .

وعلى هذا النحو كانت الكتابة فى هذا العصر الجسر الذى يصل الشخص إلى أرفع المناصب ، وكان من يتقنها من الوزراء والقواد والولاة يَلْتَقِى الإكبار

والإعجاب فى كل مكان ، وقد أخذ يسيل لها لعاب كل من أحسَّ فى نفسه قدرة عليها ، حتى يَحْظَى بما يكفل له العيش فضلا عما قد يصيب من رَغَدٍ ونعيم ، ومن أجل ذلك كثر الوافدون على أبواب الدواوين وخاصة من الناشئة ذوى المطامح البعيدة ، وكانوا يعرضون أنفسهم ، فيُمْتَحَنُونَ امتحاناً عسيراً ، تُبْحَثُ فيه مهارتهم الأدبية والعقلية ، ومن جاز الامتحان أمرهم رؤساء الدواوين بملازمتهم ، ثم ضموهم إلى دواوينهم وترقوا بهم من حال إلى حال ، على قدر مهاراتهم حتى بلغوا بهم المنزلة التى يستحقونها ، وربما ألحقوهم ببعض الولاة والقواد أو جعلوا لهم التصرف فى بعض الأعمال أو فى بعض دواوين الخراج .

ولم يكن نجاح الكاتب الناشىء هينا ، فقد كان لا بُدَّ له من إحسان صناعة الكتابة ، وهو إحسان جعله يتوفر على مادتها اللغوية والأسلوبية ، حتى يتقنها الإتقان المنشود من حيث الوضوح والجمال الفنى ، أما الوضوح فلأنه كان يكتب غالبًا إلى الرعية ولا بد للرعية أن تفهم عنه ، وأما من حيث الجمال الفنى فلأنه كان يكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد ، ولا بد أن يروعهم ببيانه وبلاغته ، وقد توقَّفَ الجاحظ مراراً فى كتاباته يُشيد ببراعتهم فى القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله : «إنهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعانى[1] » .

وكان لا بد لهم بجانب هذه القدرة البلاغية من أن يتقنوا طائفة من المعارف وفى مقدمتها علوم اللسان العربى وعلم الفقه ، وكان العلم الأخير ضروريًّا لهم ، لأنهم كانوا يكتبون فى شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذمة أن يؤدوه من أموال ، وكذلك كان علم الحساب من الضرورة لهم بمكان . وكانوا يلمون بكل علم مثل الكيمياء والطب والنجوم ، وأكبوا على الفلسفة والمنطق ليدعموا عقولهم . ولم يكن ذلك كل ثقافة الكاتب ، فقد مضى يقرأ كل ما تُرْجِم من الحكمة اليونانية ومأثور

(١) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

ما تبادله الإسكندر المقدونى وأرسطو من رسائل وما نُقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال وكذلك ما نقل عن الهنود من حكم وقَصَص يتصل بتدبير الملك وخاصة كتاب كليلة ودمنة . ومرَّ بنا مدى إعجاب يحيى البرمكى بهذا الكتاب مما جعله يطلب إلى أبان بن عبد الحميد أن ينقله شعراً حتى يسهل حفظه ، وكان قد نقله ابن المقفع قبل ذلك نثرا ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أنه نقل كثيراً من سير ملوك الفرس وأنظمتهم فى الملك وتدبيرهم فى السياسة والحكم وأن مما نقله « خُداى نامه » فى سير ملوكهم و« آيين نامه » فى أنظمتهم و « التاج » فى سيرة كسرى أنوشروان و« الأدب الكبير » و« اليتيمة » و« الصحابة » . وأكبَّ الكاتب العباسى على هذه الكتب وغيرها مما عرضنا له فى الفصل الثالث كأمثال بزرجمهر وكتاب « جاويدان خِرَد » فى الآداب والأخلاق و « عهد أردشير بن بابك إلى ابنه سابور » .

ولعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن المادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت من أهم المؤثرات فى رقى الكتابة الديوانية وتطورها ، وحقًّا أن هذا التأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنه لم يبلغ أشده إلا فى هذا العصر إذ اتسع نقل الآداب الفارسية وكل ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمال والولاة ، مما سالت مادته الغزيرة فى كتابات الكاتب العباسى ، ولعل ذلك ما جعل الجهشيارى يقدم لكتابه الوزراء والكتاب بتمهيد واسع عَرَض فيه لتدوين الفرس للدواوين ونظمها المختلفة ، متحدثًا فى ثنايا ذلك عن كتب الأكاسرة إلى عمالهم ومقتبساً فصولاً عن سابور إلى ابنه ومن كلام أردشير وكلام أبرويز إلى وزرائه ووصيته لابنه شيرويه ووصية أردشير لوزرائه واستشارة سابور لوزيرين نابهين . وعَرَض الجهشيارى لبعض رسائل أرسطو للإسكندر ، ولبعض وصايا الهند وحكمهم . وفى ذلك كله الدلالة الواضحة على مدى ما كان يأخذ به الكاتب العباسى نفسه من ثقافة سياسية ، وخاصة ما كتبه الفرس فى وصاياهم وعهودهم . وكان لابد له من إلمام واسع بأخبار العرب وأشعارهم وكل مايتصل بهم وبخلفائهم ، وكان أحياناً يحسن نظم الشعر ورصفه ، ويستشهد به فى رسائله وكلامه ، وكذلك كان يحفظ القرآن الكريم ويقتبس منه أحيانًا ، وأحياناً يحاول مجاراة

أساليبه وما يجرى فيها من حسن التأليف والتئام الكلم وجودة المقاطع وحلاوة البيان وعذوبته . وحتى الخطّ كان لا بد للكاتب العباسى من إجادته .

ومَنْ ينظر نظرة عامة فى موضوعات الرسائل الديوانية لهذا العصر يلاحظ أنها كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخْذ البيعة للخلفاء وولاة العهود ، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها فى المطر والخصب والجدب ، وعهود الخلفاء لأبنائهم ، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام فى تدبير السياسة والحكم . وأيضًا فإنها أخذت تتناول بعض الأغراض التى كان يتناولها الشعر من تهنئات وتعزيات وشكر مما سنعرض له فى الرسائل الإخوانية التى تصور عواطف الأفراد ، وقد تفننوا حينئذ طويلا فى التحميدات التى تُصَدَّر بها الرسائل ، وتُنْسب إلى الرشيد أنه أول من أمر أن تبتدىء مكاتباته بعد البسملة بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم[1] . وفى رواية ثانية أن يحيى البرمكى وزيره أول من زاد فى الرسائل : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله » وأنه أنشأ فى ذلك كتابًا ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السلام[2] .

ونحن نقف عند طائفة من الكتاب النابهين مرتبين لهم على عهود الخلفاء وأول كاتب لمع اسمه فى مطالع العصر عُمارة بن حمزة كاتب السفاح والمنصور وقد ولاه الأخير فى سنة ١٥٦ على كور دجلة والأهواز وفارس ثم ولاه المهدى خراج البصرة ، وعاش حتى سنة ١٩٩ للهجرة[3] ، وكان المهدى يجلّه ، وكان جواداً غير أنه كان فيه تيه شديد حتى ضُرب المثل بتيهه ، فقيل أتْيه من عمارة ، وتُرْوَى له فى التيه والكرم حكايات كثيرة . وهو أحد الكتاب البلغاء وقد اشتهر بتدبيجه لأول رسالة من رسائل الخميس ، وهى رسالة كانت تُكتَبُ فى عهد كل خليفة عباسى ، وكان موضوعها تأييد الدعوة العباسية وتأييد الخليفة الحاضر وتعداد مناقبه وبيان مآثره وأنه أحق أهل بيته بالخلافة . واشتهر أيضًا برسالة

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/١٠٣ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٧٧ .
(٣) النجوم الزاهرة ٢/١٦٤ وانظر فى ترجمته الفهرست لابن النديم ص ١٧١ ومعجم الأدباء ١٥/٢٤٢ والجهشيارى ص ٩١ ، ١٣٣ وفى مواضع أخرى متفرقة ، راجع الفهرس .

لُقِّبت باسم الماهانية وفيها يقول ابن النديم : « الكتب المجمع على جودتها عهد أردشير ، كليلة ودمنة ، رسالة عمارة بن حمزة الماهانية ، اليتيمة لابن المقفع ، رسالة الخميس لأحمد بن يوسف » . ويظهر أنها كُتبت لعامل كى يستشير عيسى بن ماهان فى كل ما يأخذ من الأمر ويدع ، وفيها يقول له على لسان الخليفة[1] :

« أمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية قُرْبَ بعض الأمور من بعض ، لسرعة تقلب القلوب واختلاف الحالات عند مَيْل الهوى ولا يُنْكِرُ جَرْىَ المقادير بغَيْب ذلك عن العباد واستئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة . بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواما فى قلوبهم ضغائن ، دونها الغَدْر ، يُظْهِر أسرارهم ويخرج أضغانهم ، ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن فى ذلك عنده عزيزاً ، ولم يكن بهم امتناع . غير أنه قد أنكر أن تعجل إلى ابن ما هان — وإن كان محلا بارزا — بأمرٍ دون مؤامرته (مشاورته) ويكره لك العجلة فإنها موكَّلٌ بها النَّدم وإنه كان يقال : أصاب متأمل أو كاد . وقالت العرب : فإما تَرَيَنَّ أمراً رَشَداً فتبيَّن ثم ارْعَوِ أو أقْدِمْ وأحْكِم . ولحقٌ ما أمر الله عزَّ وجلَّ به من التَّبَيُّن وما حذَّر أن يصاب قوم بجهالة وما خوَّفَ على ذلك من الندامة ، فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجلَّ واتعظ واستيقظ » .

وواضح حرص عمارة على التمثل بكلام العرب واستعارة ألفاظ القرآن ومعانيه ، فقد حلَّ فى آخر كلامه قوله جلَّ شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنَبَأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) .

ومن كُتَّاب المنصور مَسْعدة بن سعد بن صُول أحد ملوك جرجان فيما يقال ، وكان يكتب أولا لخالد بن برمك وزير المنصور ثم لواليه على فارس . ولما اتخذ المنصور أبا أيوب الموريانى وزيراً وقلَّده الدواوين أقام مسعدة على ديوان الرسائل ، ويَرْوى ياقوت فى ترجمته لابنه عمرو أن المنصور قال يوماً لكتَّابه : اكتبوا لى تعظيم الإسلام ، فبَدر مسعدة فكتب[2] :

---

(١) انظر الرسالة بأكملها فى جمهرة رسائل العرب لأحمد زكى صفوت ٣/١٢٧ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٦/١٢٨ .

« الحمد لله الذى عظَّم الإسلام واختاره وأوضحه وأناره وأعزَّه وأنافه (أعلاه) وشرَّفه ، وأكمله ، وتمَّمه ، وفضَّله ، وأعزَّه ، ورفعه ، وجعله دينه الذى أحبَّه واجْتَباه (اختاره) واستخلصه وارتضاه ، واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذى تعتدُّ به ملائكته وأرسل بالدعاء إليه أنبياءه وهدى له من أراد إكرامه وإسعاده من خلقه فقال جلَّ من قائل : (إن الدين عند الله الإسلام) وقال جلَّ وعلا : (ومن يَبْتَغِ غير الإسلام دينًا فلن يُقْبَلَ منه) وقال : (ملَّة أبيكم إبراهيم هو سمَّاكم المسلمين من قبل) . فبهذا الإسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله إلى رضوان الله ورحمته ، وجواره فى جنَّته ، وبه تحرَّزوا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته ».

فقال المنصور : حَسْبُك يا مسعدة، اجْعَلْ هذا صدرَ الكتاب إلى أهل الجزيرة بالإعذار والإنذار . وفى جوانب من التحميد أسجاع مما يدل على القصد إلى العناية الفنية وأن الكاتب يريد أن يأسر الأسماع بجمال الجرس والأداء.

ومن كُتَّاب المنصور أيضا يوسف[1] بن صُبَيْح ، وكان يكتب ، فى ديوان الكوفة لبنى أمية ، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور فى مطلع الدولة العباسية ، حتى إذا أخفقت ثورته على ابن أخيه واستتر بالبصرة عند إخوته لجأ يوسف إلى أصحابه من الكتاب فى ديوان المنصور ، فألحقوه به . ويظهر أنه ظل يعمل فى ديوان الخلافة ، حتى إذا كان البرامكة قربوه ، فكان يختلف بين دواوينهم ودواوين الرشيد ، ومن مأثور ما يُرْوَى له رسالة قصيرة كتبها عن عبد الله بن على إلى ابن أخيه السفاح يعزيه عن ابن له على هذا النمط[2] :

« أما بعد فإن أحق الناس بالرضا والتسليم لأمر الله جلَّ وعزَّ مَنْ كان إماما لخلق الله وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتعزَّ أميرَ المؤمنين بفهمك ، وارجعْ فى وَعْدِ الله جلَّ وعز من الصابرين إلى علمك ».

ومن الكتَّاب لعصر المنصور جبل بن يزيد كاتب عمارة بن حمزة وفيه يقول صاحب الفهرست : « كان مترجمًا وكان من معدودى البلغاء والبرعاء[3] » وقد

---

(١) انظر فى ترجمته الأوراق للصولى (أخبار الشعراء) ص ١٤٦ والجهشيارى ١٣١ ، ١٧٥

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٩ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

احتفظ له ابن طيفور فى كتابه « اختيار المنظوم والمنثور » بطائفة بديعة من رسائله، منها رسالة كتب بها إلى المهدى يعزيه عن أبيه ويهنئه بالخلافة، ويظهر أنه كتبها عن عمارة بن حمزة وفيها يقول[1]:

« أعظِمْ بالمصيبة مصيبةً نزلتْ ، وأعظم بالنعمة نعمةً حدثتْ ، وإن أحق من انتصح لله فى قضائه واعترف بوجود حُسْن بلائه من علم أن الفجائع أمرٌ جرتْ به سُنَن الله بين عباده تذكيراً وتحذيراً . . ولولا ذلك لم يكن لمعزّ أن يروم تعزية أمير المؤمنين . . فعظَّم الله على الحادث النازل أجره ، وأحسن على الخلافة عَوْنه ، ثم لا وكله الله فى شىء من الأمور إلى نفسه ، وألهمه العمل بما يرضيه ويبلغ به تأدية حقه ، فيما استرعاه واستحفظه وجعله أهله وأحقَّ به » .

ومن الكتّاب أيضا لعصر المنصور غسّان بن عبد الحميد كاتب[2] عمه سليمان بن على واليه على البصرة لسنة ١٣٣ للهجرة ، وفى الفهرست أنه كتب لابنه جعفر بن سليمان على المدينة سنة ١٤٦ للهجرة ويقول : « كان بليغا حلو الكلام لطيف المعانى[3] » واحتفظ له أيضًا ابن طيفور بطائفة جيدة من رسائله ، وأكثرها يدور فى التعزية ، ويظهر أنه كان يتقنها إتقانًا بعيداً على نحو ما نرى فى هذه القطعة من رسالة يعزى بها المهدىّ عن أبيه[4] :

« أما بعد فإن الله تبارك وتعالى جعل المقادير علما ثابتاً عنده وكتابًا سابقا منه ، فجرت عليه ومضت به الأمور فى قدرته ، والعباد فى قبضته . وليس عَبْدٌ من عبيده إلا وقد كان عمره فى الدنيا موظوفا قبل خلقه ، وكان ما يصيبه منها مكتوبًا عليه قبل أن ينزل به ، ثم جعل أهل عبادته أهل حظوظ متكاملة فى السعادة وأهل فضائل متظاهرة فى الكرامة ، فاصطفى منهم أنبياءه ، وانتجب منهم خلفاءه ، وألزمهم على ذلك الموت الذى لا بد منه وجعله الحياة لهم فيما عنده ، فكانت وفاة من توفّى منهم له سعادةً فيما يصيّرهم إليه وحياةَ مَنْ أحيا منهم له كرامة فيما يصطنعهم له ، فيمضى الأول منهم سعيداً ويبقى الباقى منهم مصطنعا فلا تنقطع الدنيا بماضيهم إلا إلى خير منها ولا يبقى باقيهم إلا ليزداد خيراً فيها .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٤٨ .
(٢) الجهشيارى ص ١١٠ .
(٣) الفهرست ص ١٨٣ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/١٤٩ .

والماضى مفقود مستخلَف منه ، والباقى محمود مرضىّ به ، وأمر الرعية قائم معدول فيـــه » .

وننتقل إلى عصر المهدى فنلتقى بأبى عبيد الله معاوية[١] بن عبيد الله بن يسار وكان المنصور ضمّه إليه حين أنفذه إلى الرىّ ليكتب له ويصدر عن رأيه ومشورته ، فلما ولى الخلافة استوزره وفوّض إليه الدواوين . حتى إذا كانت ســـنة ١٦٣ صرفه عن وزارته واقتصر به على ديوان الرسائل وما زال يليه حتى سنة ١٦٧ . ثم صرفه المهدى عنه أيضا ، ولم يلبث أن توفى سنة ١٧٠ للهجرة . وكان غزير العلم جذاب الحديث بارعاً فى القول ، ومن طريف ما رواه له الجاحظ قوله : « التماس السلامة بالسكوت أولى من التماس الحظ بالكلام . وقمع نخوة الشرف أشد من قمع بَطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة أصعب من الصبر على ألم الحاجة . وذل الفقر قاهرٌ لعز الصبر ، كما أن عز الغنى مانع من الإنصاف إلا لمن كان فى غريزته فضل كرم وفى أعراقه مناسبة لعلو الهمة[٢] » . وكان أهل الخراج يعذّبون بصنوف من العذاب : من السباع والزنانير والسنانير ، فكتب إلى جميع العمال برفع العذاب عنهم . وقد اشتهر ببراعته فى التحميدات التى كانت تصدَّر بها الرسائل والكتب من مثل قوله[٣] :

« الحمد لله الذى جعل الإسلام رحمة قدّمها لعباده قبل خلقه إياهم واستيجابهم إياها منه ، فاصطفاه لنفسه وشَرعه لهم ديناً يدينون به ، ثم جعل تجديد وحيه ومتابعة رسله رحمة تلافاهم بها بعد تقديمها ومِنّة ظاهَرها عليهم قبل استيجابهم لها ، تطولا على العباد بالنعماء ، وإعذاراً إليهم بالحجج وتقدمةً بالوعد وإنذارا إليهم عواقب سخطه فى المعاد . والحمد لله الذى ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بهداه وشرائع حقه على فترة من الرسل وطموسٍ من معالم الحق ودروسٍ من سُبل الهدى ، عند الوقت الذى بلغ فى سابق علمه ومقاديره أن يجتبى فيه لدينه الأصفياء ، ويختار له الأولياء ، الظاهرين بحقه القاهرين لمن ابتغى

---

(١) الجهشيارى ص١٢٦ وفى ثنايا حديثه عن أيام المهدى ووزرائه وكتابه ، وانظر فيه كتب التاريخ مثل الطبرى وابن الأثير والفخرى ص ١٣٤ .

(٢) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٦٥ .

سبيلا غير سبيله ، فعظّم حُرْمته ووسّع حَوْزته وصدع بأمره وجاهد عن حقه فى حَوْمات الضلالة وظلمات الكفر بالحق المبين والسراج المنير ، ثم جعله مصدقا لمن سبقه من الرسل ومجدداً لما بُعثوا له وهدى ورحمة »

ومن البلغاء المجيدين الذين كتبوا له فى دواوينه إسماعيل بن صَبيح ومطرّف[1] ابن أبى مطرف العَبْدى الذى كان يتقلد ديوان الخراج ، ويظهر أن أبا عبيد الله كان يستعين به من حين إلى حين فى كتابة بعض الرسائل الديوانية ، فمما أثر له رسالة إلى بعض العمال كلها إعذار وإنذار على هذه الشاكلة[2] :

« أما بعد فإن الله حبّب إلى كل مسلم شُعْبة من دينه ، فمنهم من حبّب إليه الصلاة فهو قانت آناء الليل ساجداً وقائمًا ، يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه ، ومنهم من حبّب إليه الزكاة فهو ينفق ماله بالليل والنهار سِرًّا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم ، ومنهم من حبّب إليه الجهاد فهو بين المسلمين وبين عدوهم يذبُّ عن حريمهم ويقاتل مِنْ دونهم وفاءً بعهد الله وتسليما لبيعة الله ، فأما الراسخون فى العلم ممن قد عرف سيرتك ، وما أبدى لهم الله من سريرتك ... فهم يعرضونك على الله فى أدبار السجود وعند إدبار النجوم ويسألونه بآلائه مخلصين وبأسمائه مُلْحفين أن يصيبك بعذاب من عنده أو بأيديهم ، لما استحللت جنودك من سفك الدماء ، وأباحت رسلك من حُرَم النساء ، ولظلمك اليتامى وافتراكك على ذوى القُرْبى وتعريضك إياهم فى فتوحك للعقاب والهلكة والخلاف والمعصية ، فويل لك ولكتّابك مما كتبتْ أيديكم وويل لكم مما تكسبون ، وقد وردتْ كتبك — بحمد الله — من أمير المؤمنين — على حلم لا يوهنه الغضب وعلى عمل لا يغيره الكذب وعلى إيمان لا يستخفّه الذين لا يوقنون » .

وواضح كثرة اقتباساته من ألفاظ الذكر الحكيم ، من مثل قوله تعالى : (أمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما) وقوله : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية) وقوله : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة

---

(١) انظر فى أخباره ترجمة ابنه عمر بن مطرف فى معجم الأدباء ١٦/٧٢ والجهشيارى ص ١٦٦ .

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٢١٣ .

الله وتثبيتاً من أنفسهم . .) وقوله : (ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) (ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم) وقوله: (ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) وقوله جل ذكره : (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) . وقد توفى مطرّف سنة ١٦٤ للهجرة وكان له ابن كاتب يسمى عمر[١] تقلد ديوان المشرق للمهدى والهادى وقلّده الرشيد ديوان الأزمّة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا بالبلاغة فى عصر المهدى ، وربما لحقته هذه الشهرة فى عصر المنصور محمد[٢] بن حجر كاتب ولاة أرمينية والشام ، واتخذه العباس بن محمد أخو المنصور كاتبًا له ، ولعله تعرف عليه فى أثناء نهوضه بقيادة الجيوش فى غزو الروم ، وقد كتب عنه رسالة إلى المهدى حين جعل ابنه الرشيد ولى عهده بعد أخيه الهادى سنة ١٦٣ وفيها يوثّق البيعة لولى العهد الجديد على هذا النمط[٣] :

« قد أتتنا بيعة هرون على حين ظمأ إليها وتطلّع نحوها ، فتبادرتْها أكفُّنا ، وأسرع إليها شاهدنا وغائبنا وبايعنا بيعة رضوان من الله بصحة من نيّاتنا وسلامة من صدورنا ، مستبشرين ببيعتنا راغبين فيما صَفقت[٤] عليه أيماننا ، عارفين بأنها مُفْتَتَحُ نعمة ومقدمة فضيلة ودرجة فى الخير رفيعة مقدمين للسرور بها نُصْحَ الجُيوب[٥] باذلين للرجاء فيها ثمار القلوب » .

ونمضى إلى عصر الرشيد ، ويلقانا يحيى[٦] البرمكى ، أحد من جمع جمعًا رائعًا بين ثقافة العرب وثقافة الفرس ، وكان قلده المهدى الكتابةَ لابنه ، منذ جعله ولىَّ عهده ، والقيامَ على نفقاته وتدبير أمر الجيوش التى كان يقودها الرشيد ضد الروم . وحَسُنَ أثره عنده إلى أقصى غاية حتى إذا ولى الخلافة قلده أمور الرعية وسلمه خاتم الخلافة يأمر وينهى كما يشاء ويستعمل على الولايات والأعمال

---

(١) انظر ترجمته فى ياقوت ١٦/٧١ والفهرست ص ١٨٤ .
(٢) انظر ترجمته فى الفهرست ص ١٧٢ .
(٣) جمهرة رسائل العرب ٣/١٦٩ .
(٤) صفق يده بالبيعة : ضرب يداً بيد دلالة على التزامها .
(٥) ناصح الجيب : ناصح القلب والصدر .
(٦) انظر فى ترجمة يحيى كتب التاريخ فى خلافة الرشيد من مثل الطبرى وابن الأثير واليعقوبى وراجع الفخرى والجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ وفى أيام الرشيد ، وراجع فى بلاغته وبلاغة أبنائه العقد الفريد ٥/٥٨ .

ويعزل كما يريد ، ولم يلبث الرشيد أن ولى ابنه جعفراً على المغرب كله من الأنبار إلى إفريقية وولّى ابنه الفضل على المشرق كله من النهروان إلى أقصى بلاد الترك ، وسبق أن تحدثنا عن ذلك كله فى الفصل الأول من فصول هذا الجزء، ومضى ما نهض به البرامكة فى الشئون الإدارية والثقافية إلى أن نكبهم الرشيد فى سنة ١٨٧ للهجرة إذ أمر بقتل جعفر وحبس أبيه وأخيه الفضل حتى ماتا فى الحبس .

وكان يحيى سَيوسًا حصيفا دقيق الحس مهذب الذوق رقيق الشعور ، وحوّل مجلسه كما أسلفنا إلى ندوة علمية أدبية كبرى يتحاور فيها كبار العلماء من كل صنف ، وكان آية فى البلاغة والإيجاز ، وتوقف الجهشيارى مرارا ليروى بعض المأثور من كلامه من مثل قوله : « البلاغة أنْ تكلم كلَّ قوم بما يفهمون » وقوله لجعفر ابنه : « يا بنى انْتَقِ من كل علم شيئًا فإنه من جهل شيئا عاداه وأنا أكره أن تكون عدوًّا لشىء من الأدب » وقوله : « الناس يكتبون أحسن ما يسمعون ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون » وقوله : « العَجَبُ للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزكّيه ويشهد بأنه محسن » وقوله : « لست ترى أحداً تكبّر فى إمارة إلا وقد دل على أن الذى نال فوق قدره ، ولست ترى أحدا تواضع فى إمارة إلا وهو فى نفسه أكبر مما نال فى سلطانه » . وكتب إلى الرشيد لما نكبه وسجنه رسالة بليغة ، وفيها يقول[1] :

« من شخص أسلمتْه ذنوبه وأوثقتْه عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه . ومال به الزمان، ونزل به الحِدْثان[2] ، فحلّ فى الضيق بعد السعة وعالج البؤس بعد الدَّعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود[3] ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قد عاين الموت ، وشارف الفَوْت ، جزعا لموجدتك يا أمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قربك » .

---

(١) العقد الفريد ٥/٦٨ وغرر الخصائص الواضحة للوطواط (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ) ص ٤٠٦ وجمهرة رسائل العرب ٣/٢٢١ .

(٢) الحدثان : نوازل الدهر وحوادثه .

(٣) الهجود : النوم .

وفى هذه العبارات المحبوكة المسجوعة ما يدل على عناية يحيى بتعبيره وحَوْكه الفنى ، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن البرامكة كانوا من أهم العوامل فى شيوع السجع فى الكتابة الديوانية ، وحقا أنه لا يطرد دائمًا فى كتاباتهم ، ولكن نحسُّ ميلهم الواضح له هم وبعض كُتَّابهم ومَنْ كانوا يكتبون إليهم .

وكان جعفر[١] لا يقل عن أبيه بياناً وفصاحة وبلاغة ، إن لم يتقدم فى ذلك خطوات ،وكان مثقفًا بمعارف عصره ثقافة واسعة وضمَّه أبوه إلى أبى يوسف القاضى فعلَّمه وفقَّهه حتى صار نادرة زمنه . وحظى عند الرشيد حظوة كبيرة لم ينلها أحد قبله ، حتى قتله سنة ١٨٧ لما ثبت عنده من إطلاقه يحيى بن عبدالله العلوىَّ من سجنه ، على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول . وكانت تُضْرَبُ ببلاغته الأمثال ووصفه ثمامة بن أشرس فقال : « قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاما يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة[٢] » . ومن رسالة له فى العفو إلى أحد عماله[٣] :

« عندنا الاعتفار لما اقترفت ، وتصديقُ كل ما قلت ، واحتججت بذكره ، واعتذرت بوصفه ، والإسقاط لما جحدته ، والإكذاب للجور الذى اقترفته ، والرجوع عما أنكرته ، والزيادة فيما اخترته ، استدعاءً لك وإن انصرفت ، وحياطة لما قدمت وإن ذُممتَ ، وإيثارًا للإغضاء والاحتمال فإنهما أبلغ فى الإصلاح ، وأنجع فى الاستنجاح ، وأسرع فى التعليم ، وأكبر فى التقويم ، إن احتيج إليه فى مثلك ممن تؤمن عليه قريحته ، وترده إلى الاستقامة تجربته »

والرساله مبنية على السجع ، وكان جعفر يؤثره فى كتاباته ، مبالغة منه فى التأنق والتنميق ، وهو تنميق كان يطلبه فى كل ما يتصل به حتى فى ثيابه[٤] . وكثير هم الكتاب البلغاء الذين كتبوا فى دواوين الرشيد والبرامكة وفى مقدمتهم

---

(١) انظر فى جعفر كتب التاريخ فى خلافة الرشيد والجهشيارى (انظر الفهرس) .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٠٦ وانظر وصف سهل بن هارون للبلاغة فى زهر الآداب ٢ / ٦٩ والعقد الفريد ٥ / ٥٨ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ص ١٩٠ .

(٤) الجهشيارى ص ٢١٥ .

إسماعيل[١] بن صبيح وكان يكتب فى أول حياته لأبى عبيد الله معاوية بن عبيدالله ابن يسار وزير المهدى ورئيس دواوينه ، ولما ألحق المهدى يحيى البرمكى بابنه الرشيد اتخذه كاتبه ، حتّى إذا ولى الهادى توسط له عند وزيره إبراهيم الحرانى فقلده ديوان زمام الشام وما يليها ، ولما صارت الأمور بيد يحيى فى عصر الرشيد قلده ديوان الخراج ، ولم يلبث أن قلده ديوان الرسائل ، وظلّ على هذا الديوان مدة فى عصر الأمين . ومما يؤثر له رسالة عن الرشيد إلى جميع العمال بما عقد بين ولديه الأمين والمأمون من العهد بعده وتعليق هذا العهد فى بيت الله الحرام ، وفيها يقول[٢] :

« قد كان من نعمة الله عز وجل عند أمير المؤمنين وعندك وعند عوامّ المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله ابنى أمير المؤمنين من تبليغه بهما أحسن ما أمّلت الأمة ومدّتْ إليه أعناقها . وقذف الله لهما فى قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون إليهما والثقة بهما لعماد دينهم ، وقوام أمورهم ، وجمع ألفتهم ، وصلاح دَهْمائهم ، ودفع المحذور والمكروه من الشتات والفرقة عنهم ، حتى ألقوا إليهما أزمّتهم وأعطوهما بيعتهم وصَفقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووكيد الأيمان المغلّظة عليهم . أراد الله فلم يكن له مَرَدّ ، وأمضاه فلم يقدر أحد من العباد على نقضه ولا إزالته ، ولا على صَرْفٍ له عن محبته ومشيئته ، وما سبق فى علمه منه . وأمير المؤمنين يرجو تمام النعمة عليه وعليهما فى ذلك وعلى الأمة كافة ، لا عاقب لأمر الله ولا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه » .

ومن الكُتّاب البلغاء الذين اتصل عملهم فى الدواوين من عهد المنصور حتى هذا العهد يوسف بن صبيح ، وقد عرضنا له آنفا ، وفى الجهشيارى أن يحيى البرمكى أمره بالكتابة إلى الآفاق بتولية الرشيد[٣] ، وفى الأوراق للصولى رسالة له عن الفضل بن يحيى فى حاجة لشخص إلى أحد العمال ، وهى تجرى على هذه الشاكلة[٤] .

---

(١) انظر فى اسماعيل الجهشيارى ص ١٥٠ ، ١٦٨ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ وفى مواضع متفرقة .

(٢) الطبرى ٦/٤٨١ وما بعدها .

(٣) الجهشيارى ص ١٧٥ .

(٤) الأوراق للصولى (قسم الشعراء) ص ١٥٨ .

obeikandi.com

« فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكى لك بأمره ، لأن الصنيعة حُرْمة المصطنَع ووسيلة إلى مصطنعيه سيَّما عند من يحسن الصنيعة ويستتمها ، مستثبتا للشكر عليها والثناء الجميل بها ، بسط الله بالخير يديك ، ووصل به أسبابك وأعانك عليه وجعلك من أهله » .

ومن الكتاب المفوَّهين حينئذ محمد بن الليث ، وفيه يقول صاحب الفهرست : « كتب ليحيى بن خالد . . ويعرف بالفقيه وكان بليغا مترسلاً كاتبًا فقيها متكلما بارعا[1] » . ومن أروع ما أُثر عنه رسالته[2] التى كتبها للرشيد إلى قسطنطين السادس إمبراطور بيزنطة ، وهى تمتد إلى نحو سبعين صحيفة ، وفيها يدعوه الرشيد إلى الإسلام ، وقد أفاض ابن الليث فى وصف رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم وما طُوِى فيها من الهدى للبشر وإنقاذهم من ظلمة الضلال ، كما أفاض فى وحدانية الله ورسالات الأنبياء وهيمنة الإسلام وسلطانه على تلك الرسالات والرسالة أشبه بدفاع قوى عن الإسلام وشريعته ، وكأن ابن الليث استمد فيها كثيراً مما كان يجادل به المتكلمون النصارى وأصحاب الملل والنحل من حوله . وهو تارة يجادل بالمنطق وتارة يجادل بآيات الرسالة الباهرة ، ناقضًا ما يردده الرهبان من أن عيسى ابن الله وما يكررونه من نظرية الأب والابن والروح القدس ، مناقشا فى ثنايا ذلك آيات من الإنجيل ومن العهد القديم ، وملوِّحا بما سينزله الرشيد فى ديارهم من خراب ودمار ، وأن الروم لو تابعوه لعمَّ مساكينهم وذُرِّاعهم وفقراءهم وضعفاءهم من العدل ما يجعلهم يعيشون فى أمن وسلام ، ولذاقوا لذة الخفض ودعة الحال ورفاهية العيش والرخاء ، ولاستقاموا على الشريعة الصحيحة والتوحيد القويم . ويروى الرواة أن جعفر بن يحيى كتب إلى محمد بن الليث يستوصفه الخطَّ ، فكتب إليه رسالة بديعة فى الخط والقلم على هذا النمط[3] :

« أما بعد فليكن قلمك بحريًّا ، لا متينا ولا رقيقا ما بين الرقة والغلظ ، ضيق الثقْب ، وابْرِه بَرْيًا مستويا كمنقار الحمامة ، واعطِفْ بطنه ورَقِّقْ شفتيه ، وليكن مدادُك فارسيًّا خفيفا إذا وزنته ، وانقعْه ليلة ، ثم صَفِّه فى

---

(١) الفهرست ص ١٧٥ .
(٢) انظر فى هذه الرسالة جمهرة رسائل العرب ٣/٢٥٢ .
(٣) العقد الفريد ٤/١٩٥ .

الدَّواة ، وليكن قرطاسك رقيقا مستوىَ النَّسْج ، تخرج السَّحاة[١] مستوية من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك ، وليكن أكثر تمطيطك فى طرف القرطاس الذى فى يسارك ، وأقله فى الوسط ، ولا تَمُطّ فى الطرف الآخر ، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة ، ولا تترك الأخرى بغير مَطّ ، فإنك إذا قرنت القليل كان قبيحًا ، وإذا جمعت الكثير كان سَمِجًا . ثم ابتدىء الألف برأس القلم كله واخْطُطْه بعرضه واختمه بأسفله . واكتب الياء والتاء والسين والشين والمطَّة العليا من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين ورأس كل مُرْسَل برأس القلم . واكتب الجيم والحاء والخاء والدال والذال والراء والمطة السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف والعين والغين بالسن السفلى من القلم . وامْطُطْ بعرض القلم ، والمط نصف الخط ، ولا يقوى عليه إلا العاقل ، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضا إلا بالنظر إلى اليد فى استعمالها الحركة ، والسلام » .

وإنما نقلنا هذه الرسالة بطولها ، لندل على مدى احتفال الكتاب باختيار الأقلام وبجودة الخط ، حتى تجرى الأقلام فى القراطيس جريان الماء ، وحتى يروع الخط برونقه وبهائه ، وحتى الحروف ومطاتها العليا والسفلى ، كل ذلك يُكْتب بقسطاس . ولا بد من أن تكون السطور معتدلة متناسقة ، وقطع القراطيس مقطوعة بانتظام ، حسنة النسج والهندام ، ولا بد للكاتب من أن يراعى مواضع سِنّ القلم من كتابة الحروف ، ولا بد من أن يراعى التوازن فى مدات هذه الحروف ومطاتها . وبأيدى محمد بن الليث وغيره من الكتاب فى العصر العباسى تطوّر الخط العربى وارتقت صناعته رقيا بعيداً ، وهو رقى كان يرافق احتفالهم بألفاظهم وأساليبهم ومعانيهم حتى تصبح الكتابة كأنها وَشْىٌ خالص ، وَشْىٌ فى العين ، ووَشْىٌ فى السمع ، ووَشْىٌ فى العقل والذهن .

وكان يكتب لجعفر بن يحيى البرمكى أنس بن أبى شيخ ، وقد سلكه ابن النديم فى البلغاء العشرة الأُوَل فى العصر ، وفيه يقول الجاحظ : « كان زكيا فَهِمًا نقى الألفاظ جيد المعانى حسن البلاغة[٢] » وعدَّه الرشيد شريك جعفر

---

(١) السحاة : القطعة من القرطاس .

(٢) الجهشيارى ص ٢٣٩ .

فى إثمه ، فلما قتله أذاقه نفس المصير وصَلَبه . ويُؤْثر من تحميداته قوله[١] :

« الحمد لله الذى بالقلوب معرفته ، وبالعقول حُجّته ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه أميناً فوفّى له ، ومبلّغاً فأدّى عنه ، فحجّ به المنكر ، وتألّف به المدبر ، وثبّت به المستبصر ، إلى أن توفّاه على منهاج طاعته ، وشريعة دينه ثم أورثكم عهده ، وخصّكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى » .

والسجع واضح فى هذا التحميد ، ولعل فى ذلك ما يؤكد من بعض الوجوه ما قلنا من أن البرامكة أشاعوا فى كتّاب دواوينهم ذوق التسجيع ، وإن لم يطّرد فى جميع رسائلهم وآثارهم ، لكنه على كل حال أخذ يشيع فى كتاباتهم ، وقد عمل فى دواوينهم ودواوين الرشيد كثير من الكتّاب الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد مثل الفضل بن سهل وأخيه الحسن ومثل سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة .

ومن الكتاب الذين اشتهروا فى عهد الرشيد قمامة بن أبى يزيد، وكان يكتب أولاً لصالح[٢] بن على ، ثم أصبح كاتباً للقاسم[٣] بن الرشيد ، ثم اختص بعبد الملك بن صالح والى الرشيد على الجزيرة والشام ومصر . وسعى على عبد الملك إلى الرشيد وثبت كذبه فقتله صبرا سنة ١٧٨ للهجرة . وكان لسناً فصيحا بليغاً ، ومما أثر له قوله من رسالة وجهها — فيما يبدو — عن عبد الملك بن صالح إلى الرشيد[٤] :

« كل ما قِبَلنا وما يتناهى إلينا من ثغور أمير المؤمنين وأطرافه وبلاده أقصاها وأدناها فى صلاح ذلك كله واستقامته وهدوئه على أفضل ما عوّد الله أمير المؤمنين فيه العلوّ والعافية ، وأنا أحتذى فيه من أمير المؤمنين أمرين : إما تقدمة عرّفنى فيها رأيه فأنا ألزمها ولا أعدل عنها ، وإما أثر قد نهجه أمير المؤمنين فأنا أركبه وأتبعه ولا أفارقه . فعلى هذا — بحول الله — قوتى ومعتمدى ، قد كفى الله به فى الهداية ، وأعطى فيه الخير والمَنّ والسعادة ، فله الحمد والشكر » .

وممن عُرفوا لعصر الرشيد بالكتابة البليغة جعفر بن محمد بن الأشعث، وكان

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٩١ .
(٢) الجهشيارى ص ٢٦٢ وانظر الفهرست ص ١٧٣ .
(٣) الجهشيارى ص ٢٦٥ .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/٣٣٨ .

الرشيد جعل ابنه الأمين فى حِجْره ثم جعله فى حجر الفضل[١] بن يحيى البرمكى ، وولاه على خراسان ثم صرفه عنها سنة ١٧٣ للهجرة[٢] ، ولعله لذلك كله كان يضطغن على يحيى البرمكى ويُرْوَى أن يحيى حاول أن يسند إليه بعض الأعمال فكتب إليه يستعفيه برسالة يقول فيها[٣] :

« شكرى لك على ما أسألك الخروج منه شكر من نال الدخول فيه ، فأما عذرى فى تطويل الكتاب إليك فلم يذهب . على أن وجوه الحوائج قد يكثر الكلام فيها وتشتد قراءتها ، وإن من الحق على الراغب الاكتفاء ببعض ما بلغ ، وإن نفسى جاشت بعظيم حاجتها » .

ومن الكتّاب لعصر الرشيد أيضا عمر بن مهران كاتب[٤] الخيزران أم الرشيد ، وقد ولاه الرشيد على خراج مصر سنة ١٧٦ للهجرة وكان بعض أهلها قد اعتادوا المَطْل بالخراج وكسره ، فأحضر عمر أشدهم مدافعة وإلطاطا[٥] فاستمهله مدة ، فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فأقسم عمر أن لا يؤديه إلا ببغداد . وسرعان ما قدم له الخراج فلم يقبله منه ، وحمله إلى بغداد فأدّى الخراج بها ، وخاف الماطلون ، فأدّوا خراجهم ، وكتب عمر مع الرجل إلى الرشيد[٦] :

« إنى دعوت بفلان وطالبته بما عليه من الخراج فلوانى واستنظرنى[٧] ، فأنظرته ثم دعوته فدافع ومال إلى الإلطاط ، فآليت أن لا يؤديه إلا فى بيت المال بمدينة السلام ، وجملة ما عليه كذا وكذا ، وقد أنفذته مع فلان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلىّ بوصوله فعل إن شاء الله » .

ونخرج إلى عصر الأمين ، ويتولى وزارته ورياسة دواوينه الفضل بن الربيع ، ويظل إسماعيل بن صبيح على ديوان الرسائل ، ويروى الطبرى أنه لما عزم الأمين على خلع المأمون أشار عليه إسماعيل أن يكتب إليه بحاجته له للاستعانة برأيه ويسأله القدوم عليه ، فقال الفضل للأمين : القولُ ما قال يا أمير المؤمنين ، قال

---

(١) الجهشيارى ص ١٩٣ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/٧٢ .
(٣) كتاب الصناعتين لأبى هلال (طبعة الحلبى) ص ٣٣٨ وانظر الجهشيارى ص ١٧٩ .
(٤) الجهشيارى ص ٢١٨ وانظر النجوم الزاهرة ٢/٧٨ وما بعدها .
(٥) إلطاطاً : جحوداً ومماطلة .
(٦) طبرى ٦/٤٥٩ .
(٧) لوانى : مطلنى . استنظرنى : استمهلنى وأجلنى .

الأمين فليكتبْ بما رأى ، فكتب إليه الرسالة التالية[١] :

« من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هرون أمير المؤمنين ، أما بعد فإن أمير المؤمنين روّى[٢] فى أمرك والموضع الذى أنت فيه من ثَغْرك وما يؤمل فى قربك من المعاونة والمكانفة[٣] على ما حمّله الله وقلّده من أمور عباده وبلاده ، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية وأمر به من إقرارك على ما تصيَّر إليك منها . ورَجَا أمير المؤمنين أن لا يدخل عليه وَكَفٌ[٤] فى دينه ، ولا نكث فى يمينه إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعه ، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفصله . وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور ، وأصلح للجنود ، وآكد للفَيْء ، وأردُّ على العامة ، من مقامك ببلاد خراسان ، منقطعًا عن أهل بيتك ، متغيبًا عن أمير المؤمنين وما يجب الاستمتاع به من رأيك وتدبيرك . . فاقْدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعَوْنه ، بأبسط أمل ، وأفسح رجاء ، وأحمد عاقبة ، وأنفذ بصيرة ، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره . واحتمل عنه النَّصَب فيما فيه صلاحُ أهل بيته وذمته ، والسلام

والرسالة تحمل خصائص إسماعيل وما كان يعنى به فى كتابته من إجادة القول وإتقانه ، وهى إجادة تُرَدُّ إلى دقته فى اختيار الألفاظ والصياغات بحيث تصبح مظهراً للجمال الفنى الأدبى . وبحيث يجد فيها السامع من لذة الكلام ما يمتعه ويروعه .

ومن الكتّاب البلغاء الذين عملوا فى دواوين الأمين موسى[٥] بن عيسى بن يزدانيروذ ، وقد احتفظ ابن طيفور برسالة له إلى الأمين يتحدث فيها عن موسم الحج وسلامته وَدعته ، وهى تجرى على هذا النمط[٦] .

« أما بعد فإن الله بحمده ومَنِّه هو ولىّ أمير المؤمنين وولىّ النعمة عليه فيما حمّله واستحفظه ، وجعله القائم به والمحافظ عليه ، من ولاية دينه ورعاية أهله ،

---

(١) الطبرى ٧/١١ .
(٢) روى : فكر .
(٣) المكانفة : المساعدة .
(٤) وكف : عيب وفساد .
(٥) الجهشيارى ص ٢٨٩ .
(٦) جمهرة رسائل العرب ٣/٢٥٠ .

والمرجوُّ لإتمام ذلك بمنه ورحمه وإنى كتبت إلى أمير المؤمنين يوم النَّفْر الأول ، وقد قضى الله مناسكنا ، وتمّم حَجَّنا ، وأرانا فى مواقفنا وإفاضتنا ومَنْ حضر الحج معنا من رعيّة أمير المؤمنين أفضل ما لم يزل يُبْلِى[1] الله أمير المؤمنين ويعوِّده ويُسْلِى الرعية فى خلافته من السلامة والعافية والتوفيق والكفاية ، والله المحمود. ولم أر موسما كان أعمّ عافية وسلامة ، وأحسن هَدْيًا ودعة ، وأكثر داعيا لأمير المؤمنين وولىِّ عهده بطول البقاء من موسم الناس فى عامهم هذا بنعمة الله وفضله . أحببتُ الكتاب إلى أمير المؤمنين لمعرفتى بعنايته وتطلعه إلى عمله ، ليُسَرَّ به ، ويحمدَ الله عليه ويشكره ، فإنه يحب الشاكرين » .

وسرعان ما يخلف المأمون الأمين ، وفى عصره تبلغ الكتابة الديوانية الذروة المنشودة ، فقد تكاثر الكتاب البارعون وتكاثرت آثارهم ، واتضح فيها نزعة قوية إلى العناية بالجمال الفنى والتدقيق فى المعانى أشد التدقيق . وأول من نلقاه من هؤلاء الكتاب البارعين الفضل بن سهل وأخوه الحسن وزيرا المأمون ، وكان سهل مجوسيًّا وأسلم على يد يحيى البرمكى وأصبح من أتباعه ، فأحضر له ابنيه الفضل والحسن ، فأعجب بهما يحيى وطلب إلى الفضل أن ينقل له كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بنقله وجودة عبارته ووصله بابنه جعفر ووصل الحسن بابنه الفضل[2] ، ولم يلبث جعفر أن ضَمّ الفضل إلى المأمون ، فأسلم على يديه وغلب عليه بحصافة رأيه وسعة عقله وبلاغته ، حتى إذا أنفذه أبوه إلى مرو أصبح أمر المأمون كله بيده . ولما احتدم النزاع بينه وبين الأمين وخلعه من ولاية العهد قام على تدبير أموره خير قيام ، من تنظيم للجيوش بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، ومن حسن سياسة ودقة تصريف لشئون المأمون فى ولايته حتى تم له القضاء على أخيه وصارتْ له الخلافة . وقد عقد له المأمون فى سنة ١٩٦ والنزاع بينه وبين أخيه على أشده على الشرق طولا وعرضًا ولقّبه ذا الرياستين رياسة السيف ورياسة القلم والتدبير ، ويظهر أنه كانت فيه ميول شيعية فقد

---

(١) يبلى هنا : ينعم ويحسن .

(٢) انظر فى ترجمة الفضل بن سهل كتب التاريخ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص٢٢٩ وفى مواضع متفرقة والفخرى ص ١٦٥ وزهر الآداب ٢/١٤

دفع المأمون فى سنة ٢٠١ إلى البيعة بولاية العهد من بعده لعلوى كان يعظمه المأمون ويبجله ويتخذه رفيقا ، هو على الرضا ، وكتب بذلك إلى الآفاق . فغضب آله العباسيون ببغداد ، وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فعزم المأمون على المبادرة إلى بغداد ، وفى طريقه إليها قُتل الفضل بسَرَخْس ، وفتك المأمون بقتلته ، ولم يلبث على الرضا أن توفّى بطوس ، وعادت ولاية العهد إلى العباسيين . وتُرْوَى للفضل كلمات كثيرة مأثورة ، ومما رُوى له من رسائله الرسالة التالية وقد وجّه بها مع جائزة منحها لبعض خاصّته ، وفيها يقول[١] :

« قد وجهت إليك بجائزة لا أعظمها تكثراً ، ولا أقلّلها تجبراً ، ولا أقطع لك بعدها رجاء ، ولا أستثيبك عليها ثناء » .

أما الحسن[٢] أخوه فقد ولاه المأمون دواوين الخراج فى سنة ١٩٦ للهجرة ، وفى سنة ١٩٩ جعله نائبه فى بغداد ، فقدم إليها وفرق عُمّاله على البلاد ، ولما مات أخوه الفضل اتخذه وزيراً له بعده ، حتى إذا تزوج ابنته بوران سنة ٢٠٧ طلب منه أن يعتزل الوزارة ، فأعفاه . وظل وافر الحُرْمة حتى توفى بسَرَخْس سنة ٢٣٦ للهجرة . وكان لا يقلّ عن أخيه لَسَنًا وبلاغة ، وله رسالة بديعة كتب بها إلى محمد بن سَماعة قاضى بغداد فى اختيار شخص يتولّى بعض أموره وقد وصف له فيها الخصال التى ينبغى أن يشتمل عليها ، وهى تجرى فى هذه الصورة[٣] :

« أما بعد فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ذى عفّة ونزاهة طُعْمَة[٤] ، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلّد مهمًّا من الأمور أجزأ[٥] فيه ، له سِنٌّ مع أدب ولسان ، تُقْعده الرزانة ، ويسكّنه الحلم ، قد فُرّ[٦] عن ذكاء وفطنة ، وعَضّ على قارحة[٧] من الكمال ، تكفيه

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢/٣٤٢ .

(٢) انظرى الحسن كتب التاريخ والفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦٧ والجهشيارى ص٢٣٠ وفى مواضع متفرقة وزهر الآداب ٤/٢٥ .

(٣) الأمالى للقالى ١/٢٥٣ .

(٤) طعمة : مكسب .

(٥) أجزأ : أغنى وكفى .

(٦) فر : اختبر وجرب .

(٧) قارحة هنا : تجربة ناضجة .

اللحظة ، وتُرْشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام فى أمورهم فحُمِدَ فيها . له أناةُ الوزراء، وصولةالأمراء ، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يسترقُ قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعا[1] بما استنْهض ، مستقلا[2] بما حمل . وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقة بفضل اختيارك ، ومعرفة بحسن تأتّيك » .

وتلك الخصال فى الواقع كانت حينئذ الخصال المنشودة فيمن يتولّون أعمال الدواوين ، وخدمة الوزراء والخلفاء ، وهى ترينا ما كان يُطْلَبُ فى الكاتب من ثقافة واسعة ومن حصافة وتهذيب فى الذوق وحلم وأناة وذكاء وقدرة على تصريف الأمور وإحسان للجواب ولباقة فى الخطاب وبلاغة فى الكلام بحيث يجذب القلوب والأسماع إليه ، بل بحيث يسترق أفئدة الرجال ويستولى على عقولهم استيلاء .

ومن الكتّاب الذين طارت شهرتهم فى دواوين المأمون أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة ، وسنتحدث عنهما فى الفصل التالى ، وكان وراءهما كثيرون لم يبلغوا مبلغهما فى الشهرة ، منهم محمد بن يَزْداد « وكان بليغا مترسلا شاعراً » وله رسائل مجموعة[3] ، ومنهم محمد[4] بن سعيد ، ومنهم على بن عبيدة الريحانى الكاتب وكان أديباً فصيحا بليغا صَنَّف الكتب فى الحكم والأمثال واختصّ بالمأمون[5] .

وفى مقدمة القواد والولاة الذين اشتهروا بالكتابة البليغة فى عصر المأمون طاهر[6] بن الحسين ، وهو الذى قاد جيوش المأمون ضد أخيه الأمين وحاصره ببغداد حتى ظفر به وقتله فى سنة ١٩٨ للهجرة . وولاه المأمون خراسان والمشرق سنة ٢٠٥ ولم يلبث أن توفى سنة ٢٠٧ ، وله وصية طويلة كتب بها إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرَّقة سنة ٢٠٦ وهى أشبه بدستور للحكم القويم والحاكم الرشيد ، وقد وزعها بين ما يجب على الحاكم فى دينه وخلقه وما يجب عليه فى

---

(١) مضطلعاً : ناهضاً .
(٢) مستقلا : محتملا فى قوة .
(٣) الفهرست ص ١٧٩ .
(٤) الفهرست ص ١٨٢ .
(٥) النجوم الزاهرة ٢/٢٣١ وانظر الفهرست ص ١٧٣ وزهر الآداب ٢/١٢٢ .
(٦) انظر فى طاهر كتب التاريخ ووفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٩٥ .

سيرته مع حاشيته وخاصته ومع الجند والرعية ، استهلها بحديثه عما ينبغى على ابنه من تقوى الله وطاعته والأخذ بسنة رسوله واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، ثم نصحه بالاقتصاد فى أموره وعدم الريبة فى عماله مع المسألة عن شئونهم ، وأمَرَه بالحياطة للرعية وإقامة حدود الله ، والنظر فى استصلاح العامة وعمارة ديارهم وبلادهم وانتظام معايشهم ، كما أمره بتفقد الجند ورواتبهم والعناية بهم وبالقضاء الذى به يستقيم العدل والأمن ، والعناية بالخراج وعدم الشطط فى تقديره ، والعناية بأمور الفقراء والمساكين بتعاهد ذوى البؤس منهم واتخاذ دور يأوى إليها فقراؤهم وأطباء يعالجون أسقامهم ، مع العمل بشريعة الله ، ومع تصفح الأعمال والعمّال وما ينبغى أن يكونوا عليه من العون فى سياسة أمير المؤمنين ، ومن قوله فى تضاعيفها[1] :

« اعلمْ أنك جُعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيًا ، وإنما سُمِّى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيِّمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه فى قِوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أوَدهم ، فاستعملْ عليهم فى كُوَر عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالرياسة والعفاف ووسِّع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسند إليك ، ولا يشغلنَّك عنه شاغل ، ولا يصرفنَّك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيتَ به زيادة النعمة من ربك وحُسْن الأحدوثة فى عملك واحترزتَ النَّصَحة من رعيتك وأعنتَ على الصلاح فدرَّت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كُوَرك ، فكثر خراجك وتوفرت أموالك وقويتَ بذلك على ارتباط جندك وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم عن نفساك وكنت محمود السياسة مرضىّ العدل . واستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشرْ بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك فى جميع أمورك وافْرُغْ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثرْ مباشرته بنفسك ، فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلمْ أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمرُ يومين ، فشغلك ذلك حتى تُعرض عنه ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٧/١٦٠ وما بعدها .

فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك وبدنك وأحكمت أمور سلطانك »

وشاعت هذه الوصية فى الناس ، فكتبوها وتدارسوها ، وسمع بها المأمون ، فطلبها ، ولما قرأها قال ما أبقى طاهر شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البَيْضة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به . وأمر أن تكتب منها نسخٌ وترسَل إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

وكان ابنه عبد الله[1] بارع الآداب حسن الشعر ، وقد عُنى بتأديبه فى صغره ، واختلافه إلى حلقات المحدثين والفقهاء ، وكانت فيه نزعة قوية إلى الفنون ، فلم يكتف بالشعر ، بل حذق بجانبه الموسيقى ، وروى أبو الفرج أصواتا تؤثر له . وقلده المأمون الأعمال الجليلة ، فجلَّى فيها ، وكان أول ما قلَّده الجزيرة والرقة ، فقمع المفسدين فيهما ، ثم ولاه مصر سنة إحدى عشرة ومائتين فلمَّ ما كان بها من شعث ومهَّدها ورتب شئونها ، حتى إذا انتظمت أمورها غادرها سنة اثنتى عشرة ومائتين مستخلفا عليها عيسى بن يزيد الجلودى . وتوفى أخوه طلحة والى خراسان فولاه المأمون عليها سنة ٢١٣ وظلت له ولايتها حتى توفى سنة ٢٣٠ . وكان بحرا فياضًا ، كما كان كاتبا بارعا ، وله أمان طريف[2] كتبه فى ولايته على الجزيرة لنصر بن شبث حين ضَيَّق عليه وعاذ بالأمان وطلبه، ويقال إنه لم يطلبه إلا بعد أن كتب إليه وقد اعتصم منه بأحد الحصون[3]

« اعتصامك بالقِلال[4]، قيَّد عزمك عن القتال ، والتجاؤك إلى الحصون ، ليس ينجيك من المَنون . ولستَ بمفلت من أمير المؤمنين فإما فارس مطاعن أو راجل مستأمن » . فلما قرأ هذه الرسالة حَصَره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن طلب الأمان وخرج من حصنه إلى عبد الله بن طاهر مستأمنا صاغراً ، فوجَّه به إلى بغداد .

ونمضى إلى عصر المعتصم والواثق ، وفيه يتألق فى الكتابة البليغة اسم ابن

---

(١) انظر فى ترجمة عبد الله كتب التاريخ والنجوم الزاهرة ٢/١٩١ وما بعدها ووفيات الأعيان /٣٢٧ .

(٢) تاريخ الطبرى ٧/١٧٣ .

(٣) زهر الآداب ٤/١٢٦

(٤) القلال : أعالى الجبل .

الزيات وزيرهما ، وسنخصه بحديث مفصل فى الفصل التالى ، وممن اشتهر ببلاغته حينئذ إبراهيم بن العباس الصولى ، وقد عمل فى دواوين المأمون ووزيره الحسن بن سهل، وتولى الأهواز حينا من الزمن وعزله عنها ابن الزيات ، فوجّه إليه باستعطافات طريفة ، ونحن نؤخر الحديث عنه إلى العصر العباسى الثانى ، إذ تولى ديوان الرسائل فيه للمتوكل وكتب عنه كثيراً ، مما يجعله أحق بوضعه فيه . وقد تولى ابن الزيات وزارة المعتصم وعلى ديوان الرسائل عبد الله بن الحسن الأصبهانى ويروى صاحب[1] الأغانى أنه كتب عن المعتصم إلى قائده وواليه على أرمينية خالد ابن يزيد بن مزيد :

« إن المعتصم أمير المؤمنين ينفخ منك فى غير فَحْم، ويخاطب امرءاً غير ذى فهم » .

فقال محمد بن عبد الملك الزيات : هذا كلام ساقط سخيف جعل أمير المؤمنين ينفخ بالزِّق كأنه حدّاد . وأبطل الكتاب. ثم كتب محمد بن عبد الملك إلى عبد الله بن طاهر :

« وأنت تجرى أمرك على الأربح فالأربح ، والأرجح فالأرجح ، لا تسعى بنُقْصان ، ولا تميل برُجْحان » فقال عبد الله الأصبهانى : الحمد لله ! قد أظهر من سخافة اللفظ ما دل على رجوعه إلى صنا عته من التجارة[2] ، بذكره ربح السلع ورجحان الميزان ونقصان الكيل والخسران من رأس المال . فضحك المعتصم وقال : ما أسرع ما انتصف الأصبهانى من محمد ، وحقدها عليه ابن الزيات حتى نكبه » .

واستخدم ابن الزيات بعده على ديوان الرسائل الحسن[3] بن وهب ، وهو من بيت قديم فى الكتابة إذ خدم أجداده فى دواوين الأمويين، جدّاً بعد جد ، حتى إذا آلت الخلافة إلى العباسيين توالى أجداده يعملون فى دواوينهم . وقد كتب جده سعيد وأبوه وهب للبرامكة ، وعمل وهب فى دواوين الفضل بن سهل

---

(١) انظر الأغانى ٢٠/٤٩ .

(٢) يشير إلى حرفة أبيه إذ كان تاجراً بالكرخ .

(٣) انظر فى أخبار الحسن بن وهب وترجمته الفهرست ص ١٧٧ وترجمة أخيه سليمان فى ابن خلكان والأغانى ٢٠/٦٧ .

obeikandi.com

وأخيه الحسن وتوفّى قبل دخول المأمون بغداد ، وعمل ابنه سليمان فى دواوين المأمون . ولا نشك فى أن الحسن أخاه هو الآخر اشتغل فى تلك الدواوين ، وعرف ابن الزيات حذقه فى الكتابة فأسند إليه ديوان الرسائل ، ونهض به خير نهوض ، ويقول ابن النديم : « كان شاعراً مترسلا فصيحا وأحد ظرفاء الكتاب ، وله ديوان كتاب رسائله » . وقد عاش شطراً فى العصر العباسى الثانى ، ولكنه أُبْعد عن الديوان منذ نكبة ابن الزيات لأول عصر المتوكل ، ولذلك لم نؤخره إلى هذا العصر ، فنشاطه الكتابى إنما كان فى وزارة ابن الزيات وعصر المعتصم والواثق . ومع ذلك ليس بين أيدينا رسائل ديوانية له ، سوى ما تبادله مع ابن الزيات فى المودة والتزاور والشكر ، وهما تارة يتكاتبان شعراً وتارة يتكاتبان نثراً ، وله بجانب ذلك بعض رسائل فى التعزية ، ونحن نسوق له رسالة فى الشكر لندل بها على مقدار بلاغته وحسن بيانه ، وهى تجرى على هذا النمط[1] :

« من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أفدته إياها ، فإن شكرى لك على مهجة أحييتها وحشاشة[2] أبقيتها ، ورمق أمسكت به وقمت بين التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد يُنْتَهى إليه ، ومَدًى يوقف عنده ، وغاية من الشكر يسمو إليها الطرْف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف ، وطالت الشكر وتجاوزت كل قدر ، وأنت من وراء كل غاية . رددتَ عنا كيد العدو ، وأرغمت أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل وكنَف كريم ، فكيف يشكر الشاكر وأنّى يبلغ جهد المجتهد » .

ولم نتحدث حتى الآن عن التوقيعات ، وهى عبارات موجزة بليغة ، تعودّ ملوك الفرس ووزراؤهم أن يوقّعوا بها على ما يقدَّم إليهم من تظلمات الأفراد فى الرعية وشكاواهم ، وحاكاهم خلفاء بنى العباس ووزراؤهم فى هذا الصنيع ، وكانت تشيع فى الناس ويكتبها الكتّاب ويتحفظونها ، وقد سموا الشكاوى والظلامات بالقصص لما تحكى من قصة الشاكى وظلامته ، وسموها بالرقاع تشبيها لها برقاع الثياب . ودارت فى الكتب الأدبية توقيعات كثيرة أُثرت لكل خليفة عباسى وكل وزير خطير ، من ذلك توقيع السفاح فى كتاب جماعة من

(١) العقد الفريد ٤/٢٣٣ .
(٢) الحشاشة : بقية الروح .

بطانته يشكون احتباس أرزاقهم : « من صبر فى الشدة شارك فى النعمة[١]، وتوقيع المنصور على شكوى لأهل الكوفة من عاملهم « كما تكونون يؤمَّر عليكم[٢] » وتوقيع المهدى لشاعر : « أسرفت فى مديحك فقصَّرنا فى حِبائك[٣] » وتوقيع الرشيد على رسالة لوالى خراسان : « داوِ جرحك لا يتسع[٤] » وتوقيع المأمون على قصة متظلم : « ليس بين الحق والباطل قرابة[٥] » .

ولعل وزيراً لم يبرع فى التوقيعات براعة جعفر بن يحيى البرمكى « وكان إذا وقَّع نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته » وحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ أنه جلس للمظالم فوقَّع فى ألف قصة ونيف ، ثم أُخرجت فعُرضت على العمال والقضاة والكُتَّاب وكتَّاب الدواوين فما وُجد فيها شىء مكرر ولا شىء يخالف الحق[٦]» وقال ابن خلدون : « كان جعفر بن يحيى يوقِّع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة إلى صاحبها ، فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء فى تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها ،حتى قيل إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار[٧] » ومما رواه له الجهشيارى من توقيعاته[٨] توقيعه على رقعة لمحبوس متظلم من حبسه: «العدوان أَوْبَقه ، والتوبة تُطْلقه» وتوقيعه على كتاب لعلى بن عيسى ابن ماهان يعتذر فيه عن أشياء بلغته عنه: « حُبِّب إلينا الوفاء الذى أبغضته ، وبُغِّض الغدر الذى أحببته ، فما جزاء الأيام أن تحسن ظنك بها وقد رأيت غَدراتها ووقعاتها عياناً وإخبارا» . واشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة المحكمة ، فمن ذلك توقيعه على قصة مظلوم « كفى بالله للمظلوم ناصرا[٩]» وتوقيعه على كتاب لتميم بن خزيمة بن خازم: « الأمور بتمامها والأعمال بخواتيمها والصنائع باستدامتها ، وإلى الغاية جَرْىُ الجواد ، فهناك كشفت الخبرة قناعَ الشك فحُمد السابق وذُمَّ الساقط[١٠] » . وكثيراً ما كانوا يوقعون بآية من الذكر الحكيم أو ببيت من الشعر أو بمثل من الأمثال .

---

(١) العقد الفريد ٤/٢١١ .
(٢) العقد الفريد ٤/٢١٢ .
(٣) العقد الفريد ٤/٢١٣ .
(٤) العقد الفريد ٤/٢١٣ .
(٥) العقد الفريد ٤/٢١٥ .
(٦) الجهشيارى ص ٢٠٤ .
(٧) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣
(٨) الجهشيارى ص ٢٠٥ .
(٩) الجهشيارى ص ٢٠٥
(١٠) الجهشيارى ص ٣٠٧

٥

الرسائل الإخوانية والأدبية

نمت الرسائل الإخوانية فى هذا العصر نموًّا واسعاً ، ونقصد الرسائل التى تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم ، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف ، ومن تهنئة واستمناح ورثاء أو تعزية ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى فى العصر الأموى بالشعر ، وكان من النادر أن تؤدى بالنثر ، أما فى هذا العصر فقد زاحم فيها النثر الشعر بمنكب ضخم ، وأتاح له ذلك أمران : أولا ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يجيدون فيه إجادة رائعة ، وخاصة من كان منهم يكتب فى الدواوين ، إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة واسعة وكانوا يُعْنَوْنَ بتحبير كلامهم وتجويده وحَشْد كل ما يمكن فيه من عناية فنية ، على نحو ما مر بنا آنفا . والأمر الثانى مرونة النثر ويُسْر تعابيره وقدرته على تصوير المعانى بجميع تفاريعها قدرة لا تتاح للشعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقدة من وزن وقافية . وقد طوَّع هؤلاء الكتاب الديوانيون أو السياسيون أساليبه ومرَّنوها على أن تحمل كثيراً من المعانى الجديدة غير المألوفة .

وبذلك كله ثبت النثر للشعر فى التعبير عن العواطف التى طالما عبَّر عنها ، بل لقد أظهر فى ذلك طواعية لعلها لم تكن تتاح حتى لكبار الشعراء ، ومن أجل ذلك رأينا منهم كثيرين يتخذون النثر أداة للتعبير عن مشاعرهم على نحو ما سنرى عند العَتَّابىّ وأبى العتاهية ، وكأنهم وجدوا فيه يسراً فى التعبير وفسحة لعرض بعض المعانى التى يلمُّون بها بجميع دقائقها مما لا يستطيع الشعر أداءه .

وتدور فى كتب الأدب رسائل إخوانية كثيرة مما دبَّجه كتَّاب الدواوين والشعراء وغيرهم من الأدباء ، فقد تعاور عليها كثيرون ، وكل منهم يتأنق فيما يكتب منها ويحاول الإطراف بمعانيه وصياغاته وما يبثُّ فيها من مهارته الفنية . وممن كان يُعْنَى بها عناية واسعة فى أوائل هذا العصر ابن المقفع وسنفرد له بعض الصحف فى الفصل التالى ، ومنهم محمد بن زياد الحارثى ، وهو أخو يحيى بن

زياد الحارثى رفيق مطيع بن إياس وجيله ، وفيه يقول ابن النديم « شاعر مترسل بليغ [١] » وله فى الشكر [٢] :

« قد يجب على من يتقلب فى ظل كرامتك ، ويأوى إلى كنف نعمتك ، أن يقول بما هو أولى ويُخْبر عما هو به مرتَهَنٌ من شكر بلائك [٣] ، وحق نعمتك ، فنحن الذين سبقت نعمتك عليهم ، وعظمت منتك لديهم ، فيما أبليت وأوليت من جميل رأيك ، وحُسْن أثرك ، بعطفك وتحنُّنك ، واستخلاصك إياه مِقةً وأنسا ... فى أيادٍ من أياديك عظمت فلا تُجْحَدُ ، ونعم من نعمك شُهرت فلا تنكر ، ولا يُحْصَى عددها وإن اجتهدنا فى حفظها ، ولا نبلغ فى شكرها ، وإنْ دأبْنَا فى بلوغ تأديته ، فقد اعتقدتها منَّة علينا ، ويداً عندنا ، فنحن لك صنيعة ما بقينا وبقى الخَلَفُ منا » .

وكانت ترجمة ابن المقفع للأدب الكبير وما جاء فى كتاباته من حديث عن الإخاء والمودة مادة غزيرة للكتَّاب كى يستمدوا منها كل ما يريدون من تصوير الأخوة الحقة والصداقة الصادقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه رسالة لجبل بن يزيد إلى بعض إخوانه وهى تجرى على هذا النمط [٤] :

« اعلم أنى إليك مشوق وأن صلة الإخوان كرم ، وخير الصلات ما لم يكن لها وجه إلا الرجاءُ والحفظ وتجديد المودة وتصحيح الإخاء ، فإن الذى يكاتب إخوانه على حال الرغبة . . . إن أحبَّ مال به إلى الصحة ، وإن شاء وضعه للرغبة ، والرغبة أملكهما به . والذى يكاتب إخوانه على حال الضرورة فقد يستقطع الصلة عند الحدث مخافة الملامة من الناس على القطيعة الشَّنْعاء المشهورة لإخوانه ، فإن الذى لا مودة له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء . والكتاب على مثل حالنا وحالك اليوم شاهد على أن ذلك ليس إلا صحة الإخاء والشوق إلى المحادثة بالكتاب حين لا يلومك اللائمون لمنزلة البلاء تلك اللائمة على التقصير ولا توضَعُ منك الرغبة فى الإطماع . إياك أن تعتلَّ بالأشغال أن كنت فى خاصة نفسك ، فإن أداء الحق وصلة الأخوان أعظم الخاصة بك خاصة ،

---

(١) الفهرست ص ١٧١ .
(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/٧٩ .
(٣) البلاء هنا : الإحسان .
(٤) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٦ .

وإنما أمرنا فى كل هذا كأمرك فى الذى تستغنى به من خاصتك تلك التى لنا ، فإن لنا مالك ، وهذه التى لنا لك ، أليس ما سرَّنا سرَّك ، والله يوفقنا وإياك » .

وواضح أنه يتسع فى تصوير صحة الإخاء ، وهو يجعل المتودِّدين الملحفين فى الأخوة أصنافا ، فمنهم من يطلبها للرغبة ، وإخاؤه لذلك مشوب ، ومنهم من يطلبها للضرورة وإخاؤه بذلك موقوت ، بحيث إذا ألمَّ بصاحبه مكروه قطعه القطيعةَ الشنيعة . ويقول إن إخاءه ليس من هذين الضربين الممقوتين ، بل هو إخاء سليم صحيح ، ويدعوه أن لا يعتل بشغل عنه بخاصةَ نفسه وانصرافه إلى بعض شئونه فالإخاء الصادق أخصُّ ما ينبغى له أن يشغل صاحبه ويصرفه عن كل شىء سواه .

ومما أكثروا فيه التعازى ، وعادة يتحدثون فيها عن ثواب المنكوب ببعض أهله على حسن صبره وما ينبغى عليه من التسليم لأمر الله والرضا بقضائه ، وقد يعرضون لذم الدنيا وأنها دائمًا تكدر الصفاء وتنغص السرور ، ويُرْوَى أن المهدى جزع جزعا شديدا حين ماتت ابنته البانوقة ، فأكثر الناس من تعازيه ، وكان ممن عزاه إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى بهذه الرسالة الموجزة[1] :

« أما بعد فإن أحقَّ مَنْ عرف حق الله عليه فيما أخذ منه من عظَّم حق الله عليه فيما أبقى له . واعلم أن الماضى قَبْلك هو الباقى لك ، وأن الباقى بعدك هو المأجور فيك ، وأن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يُعافَوْن منه » .

وكثيراً ما تعاتبوا عتابا رقيقًا ، وقد يَعْنفون فى عتابهم ، ولكن عنف المتحضر المهذب الذى قد يمسّ ولكنه لا يَخْدش ، ومن رسائلهم الطريفة فى العتاب التى تدل بوضوح على دقة الحس ورهافة الشعور رسالة يوسف بن صبيح إلى محمد بن زياد الحارثى ، وفيها يقول[2] :

« حفظك الله وحاطك ، رأيتك — أكرمك الله — فى خَرْجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك ، وإبلاغنا خبرك ، وقطعتنا قطعَ ذى السَّلْوة أو أخى المَلة[3] ،

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٧٤ .
(٢) الأوراق للصولى و (قسم الشعراء) ص١٥٢ .
(٣) الملة : الملال .

حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقا ، وإلى البعد منا تَوّاقا ، فوقع بُعْدك بحيث تحبّ من جهتين : إحداهما حلاوة الولاية ، والأخرى لذة الراحة منا ، فإن يكن ذلك كما رجّيناه قاطعناك مجملين ، أو لبساك على يقين . . وما أدرى ما أقول فى اختيارك ترك الكتب المحدثة عن العَتْب بالأسرار المفهومة ، حتى كأنها محادثة الحضور ، على تنائى الدور ، والقلوب بها مشاهدة ، وإن كانت الأبدان متباعدة ، ولئن كذب فيك الرجاء ، لقديما عزّ الوفاء ، وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء ، ولا تتوهمن أنى أردت ، إعناتك بإعتابى ، ولاأن أزْرى عليك بكتابى ، فإن وصلتَ فشكور ، وإن قطعت فعذور ، والسلام »

وتأنقُ يوسف وتنميقه ودقته فى التعبير واضح فى تلك الرسالة ، وقد تفنّن الكتاب طويلا حينئذ فى صور الاعتذار ، ومن رسالة لمحمد بن الليث فى اعتذاره لشخص ظنّ به بعض الظنون الخاطئة دون تبين ولا روية[1] :

« كيف يسعك أن تأخذنى بظن او كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذى ولا عقابى عليه ، واو كانت العقوبة على الذنب الكامن فى سُوَيْداء القلب واسعة لك فى حكم الربّ لكان فيما حجبت الغيوب عن العمل ما ينتقل فى القلوب التى لا تثبت على حال ، إلا ريثما يتبعها انتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عنى ، وتقف ، حتى تعرف أيمضى رأى أم ينصرف » .

وهو يشير إلى معنى نفسى دقيق ، وهو أن الخواطر التى تلم بالإنسان لا تثبت على حال ، ومن أجل ذلك كان الإنسان يتنقل بين لحظات وخواطر متناقضة ، ولا يصح أخذ الإنسان بخاطر إلا إذا ثبت فيه وعاش طويلا ، فقد يمر به خاطر سريع ويمضى دون أوبة ولا رجعة . ولعل رسالة استعطاف لم تشتهر فى هذا العصر كما اشتهرت رسالة إبراهيم[2] بن سَيابة الشاعر التى استعطف بها يحيى بن خالد البرمكى ، وكان قد أنكر منه شيئًا ، فكتب إليه يترضاه على هذه الشاكله[3] .

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٨٥ .

(٢) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٢/٨٨ وانظر البيان والتبيين ١/٤٠٥ والوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٠٣ .

(٣) البيان والتبيين ٣/٢١٥ .

« للأصيد[١] الجواد ، الوارى الزناد[٢] ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشَم[٣] الباذل ، اللُّباب الحُلاحِل[٤] ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير فإنى أحمد الله ذا العزة القدير ، إليك وإلى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة ، والبركة التامة . أما بعد فاغْنَمْ واسلم ، واعلمْ إن كنت تعلَمُ ، أنه من يَرْحم يُرْحم ، ومن يَحْرم يُحْرَم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يَعْدم[٥] ، وقد سبق إلىّ ، تغضُّبك علىّ ، واطراحك لى ، وغفلتك عنى ، بما لا أقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا أرقد ، فلست بحىّ صحيح ، ولا بميت مستريح ، فَرَرْتُ بعد الله منك إليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

أسرعتْ بى حَثًّا إليك خِطائى ... فأناختْ بمُذْنبٍ ذى رجاء[٦]

راغبٍ راهبٍ إليك يُرَجِّى ... منك عفوًا عنه وفضلَ عطاء

ولعمرى ما مَنْ أصرَّ ومن تا ... بَ مُقِرًّا بذنبه بِسَواء

فإن — رأيت — أراك الله ما تحبّ ، وأبقاك فى خير — أن لا تزهد فيما ترى من تضرُّعى ، وتخشُّعى ، وتذللى ، وتضعُّفى ، فإن ذلك ليس منى بنَحيزة[٧] ، ولا طبيعة ، ولا على وجه تصيّد تصنُّع ، وتخدُّع[٨] ، ولكنه تذلل ، وتخشع ، وتضرع من غير ضارع[٩] ولا مَهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عِزٌّ ورفعةٌ وشرف »

وما إن تلاها يحيى حتى عفا عن جرمه ، ورضى عنه ووصله . ويقول الجاحظ إن عامة أهل بغداد كانوا يحفظون هذه الرسالة ، إعجابًا ببلاغتها ، وهى بلاغة تُرَدُّ إلى ما أجرى فيها ابن سَيابة من هذا السجع الرشيق الذى يدل بوضوح على أن العبارات كانت طيعة على لسانه ، بحيث يتصرف فيها كما يريد دون أن

---

(١) الأصيد : السيد الرافع رأسه أنفة وشمما .
(٢) وارى الزناد : أصله مخرج النار منه ، وهو كناية عن مضاء العزيمة .
(٣) الأشم : المملوء أنفة .
(٤) الحلاحل : السيد الشجاع ذو المروءة .
(٥) لايعدم : يريد لايعدم مكافأته .
(٦) حثا : مسرعة . خطائى : جمع خطوة أناخت : بركت وأقامت .
(٧) نحيزة : طبيعة .
(٨) تخدع : خداع .
(٩) ضارع : ذليل .

يستعصى عليه منها شيء ، حتى مع ما اختاره لها من ممرّات السجع ودروبه الضيقة .

ومن الشعراء الذين جمعوا بين براعتهم فى الشعر والكتابة الإخوانية العتّابى ، وقد ترجمنا له بين شعراء العصر النابهين وكانت قدرته فى الكتابة لا تقل عن قدرته فى الشعر ، وكان يعمد فيهما جميعًا إلى الإيجاز وأن يروع السامع بمعانيه كما يروعه بأساليبه ، ومما يصوّر ذلك فى كتابته ما كتب به إلى صديق انتجعه فى أيام شحيحة مجدبة ، على هذه الشاكلة[1] .

« أما بعد أطال الله بقاءك وجعله يمتدُّ بك إلى رضوانه والجنة ، فإنك كنت عندنا روضة من رياض الكرم تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكنا نُعفيها من النُّجْعة[2] استتماما لزَهْرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخارا لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندى قطعة من سِنِى يوسف ، اشتدَّ علينا كَلَبُها[3] ، وغابتْ قِطَّتُها[4] ، وكذبتْنا غيومها ، وأخلفتْنا بروقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتُك[5] ، وأنا بانتجاعى إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمى بأنك موضع الرائد[6] ، وأنك تُغْطَّى عين الحاسد . والله يعلم أنى ما أعدُّك إلا فى حَوْمة[7] الأهل . واعلمْ أن الكريم إذا استحيَى من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعْرَف جوده ولم تظهر همته ، وأنا أقول فى ذلك :

إذا تكرَّهتَ من بذل القليل ولم تقدرْ على سَعَةٍ لم يظهر الجودُ
بُثَّ النَّوالَ ولا تمنعْك قِلَّتُهُ فكلُّ ما سَدَّ فقرًا فهْو محمودُ »

ويقال إنه بلغ من تأثيره فى صديقه حين قرأ هذه الرسالة الرقيقة أن شاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه . وعلى نحو ما كان يقصد فى أشعاره إلى المعانى الدقيقة الطريفة يصوغها فى مقطوعات قلما تجاوزت بيتين

---

(١) الأمالى ٢/١٣٧ .
(٢) النجعة : الاستمناح ، وأصلها طلب الكلأ .
(٣) كلبها : سوءها وقحطها .
(٤) كناية عن الجدب ، فالقطة لاتجد ماتأكل.
(٥) انتجعتك : طلبت نائلك ومعروفك .
(٦) الرائد : الذى يتقدم القوم فى طلب العشب .
(٧) حومة : موضع.

كان يصنع برسائله، فهو يصوغها غالبًا فى عبارات قليلة قد لا تتجاوز سطرين أو ثلاثة ، ولكنها مع قلتها تحمل من المعانى والصور النادرة ما يجعلها آية من آيات البلاغة العباسية ، فمن ذلك ما كتب به إلى بعض أصحاب السلطان[١].

« أما بعد فإن سحائب وعدك قد أبرقت ، فليكن وَبْلُها[٢] سالما من علل المَطْل ، والسلام » .

وهى صورة طريفة عرف كيف يستتمها وكيف يرسمها فى عبارات موجزة رسماً يبهر قارئها ويجعله يكرر النظر فيها . ومن ذلك ما كتب به إلى بعض إخوانه يسأله مواصلة مودته بعد جفوة حادثة[٣]:

« لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوِّك عنى لم أبذل وجه الرغبة إليك ، ولم أتجشَّم مرارة تماديك ، ولكن استخفَّتنا صَبابتُنا ، فاحتملنا قسوتك ، لعظيم قدر مودَّتك ، وأنت أحق من اقتصَّ لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من إبطائه ».

واتسع استخدام الكتَّاب للنثر فى كل فنون الشعر ، حتى فن الهجاء ، بل إن بعض الشعراء كانوا يستخدمونه ويؤثرونه أحيانا على الشعر كما رأينا عند العتَّابى وابن سَيابة، وكانوا يسلكون فيما يكتبون أحيانًا بعض أبيات الشعر من نَظْمهم أو نظم سواهم ، وقد ينثرون معناها قبلها ، على نحو ما مرَّ بنا آنفًا فى رسالة العتَّابى . ومن خير ما يصور ذلك رسالةٌ لأبى العتاهية فى هجاء الفضل بن معن بن زائدة ، وكان قد استَرفده وطلب نواله ببعض شعره ، فردَّه ردًّا غير جميل ، مما أغضبه وجعله يكتب إليه بهذه الرسالة[٤]:

« أما بعد فإنى توسلت إليك فى طلب نائلك[٥] بأسباب الأمل وذرائع الحمد فراراً من الفقر ورجاءً للغنى ، فازددتُ بهما بُعْدًا مما فيه تقربتُ ، وقرباً مما فيه تبعَّدتُ . وقد قسمت اللائمة[٦] بينى وبينك ، لأنى أخطأت فى سؤالك وأخطأت فى منعى ، أُمِرْتُ باليأس من أهل البخل فسألتهم ، ونُهيتَ عن مَنْع أهل الرغبة ، فمنعتهم ، وفى ذلك أقول :

---

(١) العقد الفريد ١/٢٥٠ .
(٢) الوبل : المطر الغزير.
(٣) زهر الآداب ٤/١٢٢ .
(٤) العقد الفريد ٤/٢٣٦ .
(٥) النائل : الرفد والعطاء .
(٦) اللائمة : اللوم .

فررتُ من الفقر الذى هو مُدْرِكى ... إلى بُخْل محظورِ النَّوالِ مَنُوعِ
فأعقبنى الحِرْمانَ غِبَّ مطامِعى ... كذلك من تلقاه غير قنوعِ
وغيرُ بديعٍ مَنْعُ ذى البخل مالَه ... كما بَذْلُ أهلِ الفضل غيرُ بديع
إذا أنت كشَّفْتَ الرجالَ وجدتهم ... لأعراضهم من حافظٍ ومذيع »

ومن يقرن هذه الأبيات الأربعة إلى ما قبلها من النثر يجده أشد لذعا ، وأكثر مرونة على أداء الهجاء الذى كان يريده أبو العتاهية ، ومرَّ بنا أن الشعر كان يسيل على لسانه سيلانا لم يعرف لشاعر فى عصره وأنه لم يكن يجد فيه مشقة ولا جهدا ، ومع ذلك فهو لا ينهض عنده بالمعانى العاطفية التى يستطيع النثر أداءها فى يسر وسهولة ، مما يدل دلالة واضحة ، على أنه رقى فى هذا العصر رقيا واسعًا ، حتى فى المجال العاطفى الخالص الذى طالما مرنت اللغة على أدائه شعراً ، وهو رقى تتزاوج فيه اللذة العقلية بما استنبط الكتَّاب من دقائق المعانى ، واللذةُ الشعورية بما استنبطوا من دقائق الأحاسيس والصور وما بثوا فى ألفاظهم من حسن الاختيار للصيغ ومن جمال التقابل بين العبارات والجمل ، حتى ليحاول بعض الكتاب أن يسجع فى كلامه ، حتى يصوغه صياغة موسيقية تامة .

ومما أكثر الكتاب من الكتابة فيه الدعوة إلى الزيارة لقضاء بعض الوقت فى اللهو أو فى الشراب أو فى سماع المغنين والقيان أو فى المسامرة المستحبة ، ومما يصور ذلك من بعض الوجوه دعوة الحسن بن سهل لبعض أصدقائه كى يصطبح[1] معه فى يوم دَجْنٍ غامت فيه السماء ولم تمطر[2] :

« أما ترى تكافُؤَ الطمع واليأس فى يومنا هذا بقرب المطر وبعده كأنه قولُ كثيِّر :

وإنى وتَهْيامى بعزَّة بعدما ... تخلَّيْتُ مما بيننا وتَخَلَّتِ
لكالمُرْتجى ظلَّ الغمامة كلما ... تبوَّأ منها للمَقِيل اضمحلَّت[3]

(١) يصطبح : من الصبوح وهو الشرب فى الصباح .
(٢) زهر الآداب ٢/١٤٦ .
(٣) المقيل : النوم وقت القيلولة بعد ارتفاع الضحى .

وما أصبحتْ أمنيتى إلا فى لقائك، فليت حجابَ النأى هُتك بينى وبينك، ورقعتى هذه وقد دارتْ زُجاجات أوقعتْ بعقلى ولم تتحيَّفه،وبعثتْ نشاط حركتى للكتاب، فرأيك فى إمطارى سروراً بسارٍّ خبرك،إذ حُرِمت السرور بمطر هذا اليوم موفقاً إن شاء الله » .

وعلى نحو ما أكثروا فى طلب الزيارة من الكتب والرسائل أكثروا منها أيضًا مع الهدايا التى كانوا يرسلون بها إلى أصدقائهم أو إلى بعض الوزراء وأصحاب السلطان ، وكانوا يختارون لها عادة مناسبة مثل عيد من الأعياد أو ختان بعض الأولاد ، من ذلك ما يروى من أن يحيى البرمكى عزم على ختان أحد أولاده ، فأهدى إليه وجوه الدولة كل منهم بحسب حاله وقدرته ، وتظرَّف بعض من كانوا من أسبابه، للدلالة على قصور همته، فملأ وعاء من أدَمٍ مِلْحًا مطيبا ووعاء ثانيا سُعْدًا[١] معطَّرا وكتب معهما هذه الرقعة[٢] :

« لو تمت الإرادة ، لأسعفت العادة ، ولو ساعدت القدرة ، على بلوغ النعمة ، لتقدمتُ السابقين إلى خدمتك ، وأتعبت المجتهدين فى كرامتك ، لكن قعدت بى القدرة ، عن مساواة أهل النعمة ، وقصَّرت بى الجِدَةُ[٣] عن مباهاة أهل المُكْنَة[٤]، وخشيت أن تُطْوَى صحيفة البِرِّ ، وليس لى فيها ذكر ، فأنفذت المُفْتَتَح بيُمْنِه وبركته وهو المِلْحُ ، والمُخْتَتَم بطيبه ونظافته وهو السُّعْد ، باسطا يد المعذرة، صابراً على ألم التقصير ، متجرعا غُصَصَ الاقتصار على اليسير ، والقائمُ بعذرى فى ذلك : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حَرَجٌ) . والمُهْدى ضارع فى الامتنان عليه بقبول معذرته ، والإحسان إليه بالإعراض عن جراءته » .

وعُرِضت الهدية على يحيى ، فلما قرأ الرقعة أمر أن يُفْرَغ الإناءان ويملأ أحدهما دنانير والآخر دراهم ، إعجابا بتلطف صاحبهما وبلاغته وحسن بيانه . وكانت أكثر هداياهم طيبًا وعطراً وتحفًا ثمينة ، وربما أهدوا السيوف والخيل ، ويروى أن عبد الله بن طاهر أهدى المأمون فرساً وكتب إليه[٥] :

---

(١) السعد : نبت طيب الرائحة .
(٢) غرر الخصائص الواضحة للوطواط ص ٤٤٨ .
(٣) الجدة : الغنى .
(٤) المكنة : الاستطاعة والقدرة .
(٥) زهر الآداب ٢/١٧ .

obeikandi.com

« قد بعثتُ إلى أمير المؤمنين بفرس ، يلحق الأرانب فى الصَّعْداء[١] ، ويجاور الظِّباء فى الاستواء ، ويسبق فى الحُدور[٢] جَرْىَ الماء ، فهو كما قال تأبَّط شَرًّا :

ويسبقُ وفْدَ الريحِ من حيث يَنْتحى ... بِمُنْخرقٍ من شَدِّهِ المتداركِ[٣] »

وأكثروا من التهانى مع كل مناسبة ، فهم يهنئون الخلفاء حين جلوسهم على أريكة الخلافة ، وهم يهنئون الوزراء حين استيلائهم على مقاليد الحكم ، وهم يهنئون بالزواج وعقد القران ، وهم يهنئون بإنجاب الأولاد ، وهم يهنئون بحكم الولايات ، وهم يهنئون بنعمة الحج وقضاء مناسكه ، وهم يهنئون بالظفر على الأعداء ، ولإبراهيم بن المهدى من رسالة هنأ فيها المعتصم بخروجه عن أرض الروم بعد فتحه لعمورية[٤] :

« الحمد لله الذى تمَّم لأمير المؤمنين غزوته ، فأذلَّ بها رقاب المشركين وشَفَى بها صدور قوم مؤمنين ، ثم سهل الله له الأَوْبَةَ سالما غانما . . . ولْيَهْنِئْهُ ما كتب الله له مما أحصاه فلا ينساه ، لَيَقفه به موقفا يرضاه ، فإنه عزَّ وجلَّ يقول : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة ، يقاتلون فى سبيل الله فَيَقْتلون ويُقْتلون ، وَعْداً عليه حَقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومَنْ أوْفَى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) . فطوى الله لأمير المؤمنين نازح البُعْد بَرًّا وبَحْراً ، ووقاه وَصَبَ السفر سهلا ووعراً ، وحاطه بحراسته كالئا ، ودافع عنه بحفظه راعيا ، حتى يؤدِّيه إلى المحل من داره ، والوطن من قراره ، وجزاه عن الإسلام خاصة ورعيته كافة » .

وعلى هذا النحو لم يترك الكتاب فنا من فنون الشعر إلا كتبوا فيه وعبروا عنه بكتاباتهم موجزين تارة ومطنبين تارة أخرى ، محاولين بكل ما استطاعوا أن يُظهروا القارىء على براعتهم وتفننهم فى الأداء ، وقد مضوا مثل الشعراء يعرضون لوصف

---

(١) الصعداء : الصعود الشاق .

(٢) الحدور : الجرى السريع .

(٣) وفد الريح : جماعاته ، ينتحى : يقصد . بمنخرق : بمتسع . شده : عدوه ، المتدارك : المتتابع .

(٤) جمهرة رسائل العرب ٤ / ٨ .

obeikandl.com

الطبيعة أحيانًا ، ولجبل بن يزيد رسالة جيدة فى وصف الأمطار عقب سنة مجدبة أهلكت الحرْث والضرع حتى استيأس الناس ، وهى تمضى على هذه الشاكلة[١] :

« عادتْ لنا من الله عائدةُ رحمةٍ بِوَلِىٍّ[٢] مطرٍ أنزله الله بأحسن ما رأينا من المطر ، وابلا جَوْداً[٣] ، لا يَفْتُر غزيره ، ولا يَرْعوى جَوْده إلا إلى دِيمة[٤] عن دِيمة ، يتراخى إليها يسيراً ربّما تعود ، فأقامتْ علينا سماؤه مستهلّةً[٥] بذلك إلى غروب الشمس ، ثم انقطع مطرها بسكون من الريح وفتور من القُرّ[٦] وفضلٍ من الله عظيم ينشر به رحمته ، ويبسط به رزقه ، فأسبغ النعمة ، وأوسع البركة ، وأوثق[٧] بحمد الله معارف الخِصْب . والله محمود على آلائه[٨] ، مشكور على بلائه[٩] ، وما أنزل من سُقْياه ورحمته بعد الذى أقبلت به السَّنَةُ البَرِّيَّة[١٠] ، والقحطُ وعدم الإمطار ، وشدةِ ما بلغ الناسُ من القنوط[١١] وسوء الظنون » .

ومرّ بنا فى حديثنا عن الشعر أن الشعراء كانوا أحيانًا يصفون روعة شعرهم وقدرتهم على استنباط الدرر واللآلىء الشعرية ، ومعروف أن من أكثرهم ترديداً لهذا الوصف أبا تمام ، ونرى صديقه الحسن بن وهب يكتب إليه رسالة بديعة يجعل موضوعها وصف شعره الرائع الذى كان يخصّه أحيانا ببعض منظوماته مشيداً ببلاغته ، على نحو ما أشاد ببلاغة ابن الزيات فى وصفه لقلمه المشهور ، وكأن الحسن بن وهب رأى أن يجاريه فى هذا المضمار نثراً لا شعراً ، فكتب إليه هذه الرسالة[١٢] :

« أنت — حفظك الله — تحتذى من البيان فى النِّظام ، مثل ما يُقْتَصد بَحْرٌ من الدرر فى الأفهام ، والفضل لك — أعزك الله — إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتَحُلّ متعقَّده ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/١٣٧ .
(٢) ولى المطر : الذى يسقط دفعة بعد دفعة .
(٣) الجود : المطر الغزير .
(٤) الديمة : المطر المنهمر بدون برق ولا رعد .
(٥) مستهلة : منصبة .
(٦) القر : البرد .
(٧) أوثق هنا : أنبت وأعشب .
(٨) الآلاء : النعم .
(٩) البلاء هنا : الإحسان .
(١٠) البرية : المجدبة .
(١١) القنوط : اليأس .
(١٢) زهر الآداب ٣/٢٤٨ .

obeikandl.com

وتربط متشرده ، وتنظم أشطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصّله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده . ثم لا تأتى به مهما اقتبسته مُشْتَرَكًا فيُلْبس ، ولامتعقِّدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ، فهو كالمعجزة تُضْرَبُ بها الأمثال ، ويُشْرَحُ فيها المقال ، فلا أعدمنا الله هداياك واردة وفرائدك وافدة » .

وهذه الرسائل الإخوانية التى كانوا يصورون بها عواطفهم ومشاعرهم من ثناء أو هجاء أو استمناح أو استعطاف أو عتاب أو عزاء أو تهنئة أو تهاد دفعهم تفننهم فى بعضها إلى أن يتحولوا بها إلى ما يشبه الرسائل الأدبية الخالصة ، وهى التى تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير ، حتى لا تسقط فى مهاوى الشر . ومن خير ما يصور ذلك رسالة يحيى بن زياد التى ردَّ بها على رسالة لابن المقفع طلب إليه فيها أن تنعقد بينهما أسباب الأخوة والوداد ، وهو يستهلها على هذه الشاكلة[1] :

« أما بعد فإنا لما رأينا موضع الإخاء ممن يحتمله فى تأنيسه من الوحشة وتقريبه لذى البُعْدة ومشاركته بين ذوى الأرحام فى القُرْبة لم نرض بمعرفة عينه دون معرفة نِسْبته ، فنسبنا الإخاء فوجدناه فى نسبته لا يستحق اسم الإخاء إلا بالوفاء ، فلما انتقلنا عنه إلى الوفاء فنسبناه انتسب لنا إلى البِرّ ، فوجدناه محتويا على الكرم والنَّجْدة والصدق والحياء والنَّجابة والزَّكانة[2] وسائر ما لا يأتى عليه العدد من المحامد . ثم انحدرنا فيما أصعدنا فيه من هذا النسب ، فعُدْنا إلى الإخاء ، فوجدناه لا يقوم به إلا مَنْ هذه الخصالُ كلها أخلاقه . ولما استوجب الإخاء مسالك المحمدة كلها رأينا أن نتخير له المواضع فى صواب التروِّى وإحكام التقدير ، وعلمنا أن الاحتباس به أحسنُ من الندم بعد بذله ، واستوجب — إذ كان جماع المحامد — أن نتخيَّر له محامله التى يُحْمَلُ عليها ، وكان الناس فيما احتسبنا به عنهم من الإخاء على صنفين ، فصنفٌ عذرونا بالتحبس للخير إذ كان التخير من شأنهم ، وصنف هم ذوو سرعة إلى الإخاء ، وسرعة فى الانتهاء ، فقدَّموا اللائمة ، واستعجلوا بالمودة ، وتركوا باب التَّرْوِية ، واستَحْلوا عاجل المحبة ،

---

(١) جمهرة رسائل العرب ٣/٦٧ .

(٢) الزكانة : صدق الحس .

ولهوا عن آجل الثقة ، فكانوا بذلك أهل لائمة ، ولم يجد المُعْذِرون[1] إلا الصبر على تلك والاستعمال للرأى والاستعداد بالعذر عند المحاجَّة ».

وواضح أن يحيي بن زياد لا يتحدث هنا عن إخائه لابن المقفع ووداده له ، إنما يحدث حديثا عامّا عن الإخاء ، فهو ينظر فيه نظرة عامة ، أو قل ينظر إليه من حيث هو نظرة كلية يرتفع فيها إلى الحديث عن حقيقته المجرَّدة وما ينبغى أن يكْفَلَ له من الوفاء . ويراه يقوم على البِر ، ويتغلغل فى بحث جوهره ، فيراه يحتوى مجموعة من الخصال النبيلة لا يتمُّ كيانه بدونها وفى مقدمتها الكرم الذى يجعل الأخ يبذل لأخيه ماله ، والنجدة التى تجعل الأخ يبذل لأخيه دمه ، والصدق الذى يدل على صدق القلب وإخلاص السريرة ، والحياء الذى يكفُّ صاحبه عن التطاول وسوء الأدب وسَوْرة الغضب ، والنجابة التى تحوط صاحبها بحسن الرأى وتبين حقيقة الأمر ، والزكانة أو صدق الحسّ الذى يَكْفُلُ لصاحبه صواب القول والرأى . ويقول يحيي بن زياد لما كان يتطلب الإخاء التحلى بجميع الخصال الحميدة كان على كل شخص أن يتأنَّى فى اختيار أخيه وأن يتحبَّس حتى لا يتورط فى الأخ السوء ، وهو ما يأخذ نفسه به . ومَنْ حوله مِنَ الناس صنفان : صنف يَعْذرونه لأنهم ممن يرون رأيه فى تخير الإخوان ، وصنف لا يعذرونه لأنهم يتسرعون إلى بذل إخائهم إلى من يستحقه ومن لا يستحقه ، ولذلك سرعان ما ينتقض إخاؤهم وتَنْدَوى صداقتهم إذ لا يُصيبون بها مواضعها الصحيحة من الإخوان الجديرين بالأخوة .

ومن الرسائل التى نَحَتْ هذا النحو من التجريد والنظر من أعلى إلى الموضوع الذى تتحدث فيه رسالة غَسَّان بن عبد الحميد فى العتاب ، وهو يفتتحها على هذه الصورة[2] :

« أما بعد فإن الله جعل العباد أطواراً فى أخلاقهم ، كما جعلهم أطوارا فى صُورهم وجعل بينهم أموراً يتآلفون عليها ويُعْملون أحلامهم فيها : مِنْ حُرَمٍ يتجاملون بها ، وحقوقٍ يتنازعونها ، ومودَّة يتعاطونها ، وأخوَّة يتداولونها تُرْعَى

(١) المعذر : من له عذر.

(٢) جمهرة رسائل العرب ٣/١١٣

بوفاء ، وتؤدّى بأمانة ، وتضيّع بتقصير ، وتُنْتَقَصُ بخيانة ، ليس مَنْ أُدِّيَتْ إليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه ، وليس من ضُيِّعَتْ منه بأشقى ممن ضيّعها فيما يُدْخِلُ من التقصير عليه ، فإن من أخطأه الوفاء من أخيه فإنما يدخل عليه تقصير غيره ، ومن ضَيَّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النَّقْصَ فى خاصّة نفسه ، والمرء يجد من أخيه إذا خانه بدلا ، ولا يجد عن نفسه إذا قصَّرتْ به متحوَّلا ، وليس نقصٌ يستبدل به كنقصٍ لا يستطيع مُزايلته » .

وغسان يتحدث عما بين الناس من حُرَمٍ وحقوق ومودة وأخوة ، ويرى أنه لا بد للأخوة من الوفاء الذى يحفظ على الإخوان عهودهم ، ولا بد لها من الأمانة التى تمنع الخيانة بين الإخوان وتحول بينهم وبين القطيعة المرذولة ، ولا بد لها من النهوض بجميع متطلباتها من الصيانة والثقة وتوطين النفس على أن لا يقوم هجران بين الأخ وأخيه . ويأخذ غسان فى تصوير معنى دقيق غاية الدقة ، وهو أن مَنْ يؤدى حقوق الأخوة إلى أخيه لعله أكثر منه سعادة بما يؤدى إليه منها ، وكذلك من يضيع حقوقها لعله أشقى من أخيه الذى يغمُّه تضييع هذه الحقوق ، لأنه إنما يدخله الغم بتقصير غيره ، أما صاحبه المضيِّع لتلك الحقوق فإنه يُدْخل لغم والشقاء والنقص على نفسه بنفسه ، والأول يجد من أخيه إذا خانه عوضًا فى أخ آخر صادق ، أما الثانى فإنه لا يخسر شخصاً ولا أخاً ، إنما يخسر نفسه التى بين جنبيه بما أدخل عليها من كَرْب الخيانة ، وليست خسارة يمكن تلافيها ، الخسارة لا يمكن مزايلتها ، ولا يجد صاحبها عنها حِوَلا ولا منصرفا . ويمضى غسان ليفصل القول فى خيانة الأخ لأخيه وتضييعه لنعمة الوفاء التى أنعم الله بها على عباده ، وما يلبث أن يقول :

« ليس من كانت منه فجيعة لأهل الإخاء والحُرْمة الذين ارتادوا ارتيادا واختار واختاروا فوقع رأيه عليهم ، ووقع رأيهم عليه ، وارتضوه لأنفسهم ، وارتضاهم لنفسه ، واقتصروا عليه بمودتهم ، واقتصر عليهم بمودته ، فحمّلوه أخوتهم ، وحملهم أخوته ، واسترعوه الوفاء لهم ، حتى ثبّت الله بينهم وبينه ما كان داعيا لكل رأى جميل ، نافيا لكل صَنيع معيب ، وأمرٍ مريب ، فأىُّ

نَقْصٍ أكثر وأىّ دناءة أبين من أن يكون امرؤ بمنزلة ثقة قد حُفظت منه حُرْمة، واعتُقدت بها عليه أمانة، فوجبت منه مصافاةٌ، وانتُظِرت منه صلةٌ، ثم ينكشف عن خيانة وغدر وقطيعة وفجيعة ؟

وغسان يصور هنا مذمة قطيعة الإخوان ، ويجعلها فجيعة فيمن اؤتمن فخان وعاهد فغدر ، وأى غدر؟ إنه غدر بالحرمة التى قامت بينه وبين إخوانه، حرمة الوداد الصادق الذى لم يحدث فجأة ، إنما حدث عن طول اختيار وتفقد وتوقف وتثبت ، فإذا مَنْ وثقتَ فيه وملّكته زمام نفسك قدنكث كل عهوده، بل قد طعن الأخوة المفقودة الطعنة التى ليس منها برء ولا إقالة . وأطال غسان فى تصوير وقيعة واش به لصديقه ومايراه على نفسه وعلى صديقه من حقوق الأخوة وأن لا يأخذ بالظنة وأقوال الوشاة الكاذبين . والرسالة أشبه ببحث واسع فى واجبات الإخوان وحقوقهم .

وعلى هذا النحو أخذ بعض الكتّاب ينمّون الرسائل الإخوانية حتى غدَت رسائل أدبية بديعة ، وكان ابن المقفع — كما أسلفنا — قد ترجم عن الفارسية كثيراً من الرسائل الأدبية التى تتصل بالأخلاق وسلوك الناس مع أولى الأمر فى الحياة العامة كما تتصل بالسياسة وتدبير الحكم ، وأيضًا فإنه ترجم قصص كليلة ودمنة ، وكل ذلك أخذ بعض الكتّاب يحاكونه ، من ذلك ما يذكره ابن النديم عن العتّابى من أن له رسالة فى فنون الحكم ورسالة أخرى فى الآداب[1] ، ويذكر عن محمد بن الليث الكاتب أنه كتب ليحيى البرمكى كتابا فى الأدب[2] ، وأن لسعيد بن هرون أحد خزنة دار الحكمة للمأمون رسالة فى الحكمة ومنافعها[3] ، وأن للعتبى المتوفى سنة ٢٢٨ للهجرة كتابا فى الأخلاق[4] ، ومر بنا أن على ابن عبيدة الريحانى الكاتب فى دواوين المأمون صنف كتبا مختلفة فى الحكم والأمثال . وكل هذه الرسائل كان يُرَادُ بها أن ترشد الناس فى حياتهم إلى الخير بما تقدّم لهم من الأمثال وتفصّل من الحكم . وأخذ بعض الكتّاب يُعْنَوْنَ بالكتابه فى السياسة ، على هدى ترجمات ابن المقفع فيها ، على نحو ما يذكر ابن النديم عن أبى دلف[5] العجلىّ و سهل[6] بن هرون ، واشتهر سهل بأنه استوحى كليلة

(١) الفهرست ص ١٧٥ .
(٢) الفهرست ص ١٧٥ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .
(٤) الفهرست ص ١٧٦ .
(٥) الفهرست ص ١٦٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .

ودمنة فى كتابة قصص على شاكلتها ، وسنفرد له حديثًا مستقلا فى الفصل التالى . ويقول ابن النديم عن على بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد إنه « كان أحد البلغاء، وكان يَسْلك فى تصنيفاته طريقة سهل بن هرون، وله من الكتب كتاب الجرهمية وكتاب الحرة والأمة وكتاب الظِّراف[1] » . وفى اسم الكتاب الأخير ما يشير إلى أن الكتّاب عرفوا فى هذا العصر الرسائل الأدبية التى يقصد بها إلى التفكهة والترويح عن النفس .

(١) الفهرست ص ١٧٤ .

obeikandl.com